خواطر علمية

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٧/١١/٥٩٣٠)

٣٠٦
القضاة، عبد الحميد العبدالله
خواطر علمية / عبد الحميد العبدالله القضاة. ــ عمان:
جمعية العفاف الخيرية، ٢٠١٧
( )ص.
ر.أ.: (٥٩٣٠ / ١١ / ٢٠١٧).
الواصفات: /الثقافة العامة// الخواطر/

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى .

خواطر علميـة

الدكتور عبدالحميد القضـاة
B.Sc ,M.Sc, M, Phil ,Dp.Bact ,Ph,D
(U.K)
اختصاصي تشخيص الأمراض الجرثومية
والأمصال (بريطانيا)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٧
العالِمُ الداعيةُ ومنهجيةُ التفكير	١٠
نماذج معاصرة من العلماء الدعاة	٢٣
في كل علم آيات تنتظر العالم الذي يعقلها	٢٧
المعاهدةُ الصامتة	٢٩
الجلد سور الجسد العظيم	٣٨
حوارٌ مع مصابةٍ بالإيدز	٤٨
فرمونات الشمِّ وأمية بن الأسكر	٥٧
محدوديةُ الحواسِ،نعمةٌ أم نقمةٌ؟!	٦٣
معجزاتٌ أم كرامات؟!	٧١
ومِدادُ كلماتهِ	٧٤
الاستحمام في أوروبا	٧٩
الإعجاز النبوي في الوضوء	٨٦
استنبات التكنولوجيا أم استيرادها	٩٣
آياتُ الرحمن في تنفسِ الإنسان	١٠٠
فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ	١٠٦

المقدمة

الحمد لله الذي علّم الإنسان ما لم يعلم، الحمد لله الّذي وهبه عقلاً مفكّراً، ولساناً ناطقاً، يُعبّر به عمّا يجول في خاطره، ويعتلج في صدره، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين؛ الذي آتاه الله من لدنّه علماً، نفع به البشرية، ووجهها نحو الخير، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد.

فهذه مجموعة من التأملات والأفكار التي كانت تمر بخاطري أثناء الدراسة الجامعية، والعمل المجهري الذي كنت أرى من خلاله بعض عظمة الخالق ودقة صنعه، وكلما ازداد تدبّري لآيات القرآن الكريم وأحاديث رسوله الكريم؛ ترسخت بذهني ووجداني أكثر.

ومع تكاثر هذه التأملات وتنوعها حولتها إلى محاضرات مدعّمة بالصور التي تكادُ تنطق لتُعبر عن عظمة محتواها وما تدل عليه من دقةٍ بالغةٍ، وخلقٍ بديعٍ وتنظيمٍ دقيقٍ وتفانٍ في خدمة الإنسان، بصمتٍ وتحابٍ ونشاطٍ وتعاونٍ منقطع النظير،بعيداً عن الضوضاء والتكاسل﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ **(الإسراء ٤٤)**.

ومن خلال المحاضرات العامة المدعّمة بالصور والحقائق والأرقام لاحظت تفاعل الناس من خلال حمدهم للعلي القدير وتسبيحاتهم التلقائية اللاشعورية التي كانت تنساب من أفواههم

ذاتياً ودون تفكير، لأنها كانت تتواءم مع أوتار جوارحهم ومشاعرهم الفطرية.

هذا التأثر البالغ جعلني أفكر في تدوينها لضمان بقائها، ولكن هيهات لمثلي أن يستطيع التعبيرعن حقيقتها، وكان هاجسي كيف ومن أين أبدأ ؟! وهل ستطاوعني الكلمات لإحسان التعبير والوصف؟ فإنّ الكلمات تتصاغر، والعبارات تتضاءل أمام بديع صُنع الله، ولكنّني حاولت قدر استطاعتي فعسى أن أكون قد وفّقت.

وقد بدأت ممسكاً بالقلم مستعيناً بالله، لأكتب على صفحةٍ فضيّةٍ كلماتٍ ذهبيّةٍ، تشعّ بنور المعرفة، بأحرف لغتنا العربيّة، لغة القرآن الكريم، وأعترف هنا بأنّ روعة البيان وسحر الكلام، ليعجزان عن التّعبير في هذا المجال، ورغم محاولاتي اليائسة أن أستعير بلاغة القول، وسحر الأداء، وروعة البيان، لأعبّر عن كلّ ما يجول في صدري، وتنطق به مشاعري، ولكن هيهات هيهات، فخلق الله أدقُّ وأعظم، فإن وُفقتَ في جانبٍ فاتتك جوانب، ولكن ما لا يُدرك كله لا يُترك جلّه.

ورغم أنّ لكلّ بدايةٍ نهايةً، إلاّ أنه لا نهاية لوصف خلق الله، ولكن خير العمل ما حسُن آخره، وخير الكلام ما قلّ ودلّ، وبعد هذا الجهد المتواضع أتمنّى أن أكون قد وُفقت في السرد والتعبير،

سرداً لا ملل فيه، ولا تقصير.

وأخيراً ما أنا إلّا بشر، قد أُخطئ وقد أُصيب، فإن كنت قد أخطأتُ فأرجو مسامحتي، وإن كنت قد أصبت فهذا كلّ ما أرجوه من الله عزّ وجلّ، إنه نعم المولى ونعم النصير، والحمد لله رب العالمين.

الدكتور عبدالحميد القضـاة

إربـد - الأردن

٢٠١٧/٦/١٠م

رمضان /١٤٣٨هـ

العالِمُ الداعيةُ ومنهجيةُ التفكيرِ

خلق الله العباد بأشكال وعقول متعددة، ومفاهيم ونفسيات مختلفة، وأودع في كل واحد منهم من المواهب والقدرات، ما يجعله متميزاً عن غيره ومكملاً له، فشكل بذلك لوحة فسيفسائية عجيبة، تخلب الألباب؛ فيها من الآيات الدالة على عظمة الخالق، ودقة الصانع، وحسن التنظيم والترتيب. وإن كان العقل نعمة الله للإنسان؛ إلا أن الخلق شَتّى في درجات استعماله. وقد حث الله الإنسان على استعماله؛ ليكون أداته في الإدراك والتمييز، ومعرفة عظمة الله من خلال ما يرى ويسمع؛ ولهذا كان فضل العلم كبيراً.

من العلماء من وفّق لاستعمال علمه فيما يُرضي الله؛ فأسهم في رفع مستوى الإيمان ومنسوبه عند الناس، من خلال الآيات التي عقلها دون غيره بحكم تخصصه، فكان عالماً داعية إلى سبيل ربه على بصيرة، وذلك بالحكمة والموعظة الحسنة.

ولكن: كيف أصبح هؤلاء دعاةً متميزين رغم أن دراساتهم الأكاديمية ليست في العلم الشرعي؟ وكيف وظّفوا تخصصاتهم الأكاديمية على اختلاف مجالاتها لخدمة الدعوة إلى الله؟! .وما هي المنهجية التي تربوا عليها واتبعوها منذ البداية؟.

هذا ما سنحاول سبر غوره، ثم دعوة الشباب إليه؛ ليصبحوا علماء دعاة يبلّغون دعوة الله بطرق معاصرة، مستفيدين من وسائل

التكنولوجيا الحديثة، وآفاق العلم العظيمة التي منّ الله بها على الإنسان في هذا العصر. وقد يكمن سر نجاح العلماء الدعاة في اتباعهم للأمور الآتية:

١ . حُسن استعمالهم لأداة التفكير والتفكير (العقل):

لقد عُني الإسلام بالعقل عناية فائقة، وحث على استخدامه فيما ينفع البشرية سواء بما يتعلق بالأمور الدنيوية، كإعمار الأرض، وإصلاح شؤون العباد، وتسهيل معيشتهم؛ لتحقيق معنى الاستخلاف في الأرض، أو ما يتعلق بالأمور الأخروية، وتعميق الإيمان، وبناء الوجدان الإنساني، وتعميق الإيمان من خلال التفكر في آيات الله الكونية، والتعرف على عظمة الخالق وصفاته من خلال مظاهر قدرته، وإحكام سننه الكونية، إيجاداً وبناءً وتنسيقاً وحكمة تسخيرها وتيسيرها لمنفعة الخلق واستقامة حياتهم بها.

فهذا كتاب الله العزيز الحكيم، مصدر التشريع الأول، يزخر بالتوجيهات الربانية، سواء المباشرة أو غير المباشرة، التي تحث الإنسان على إعمال العقل والفكر، والتفكر فيما خلق وشرع. ومن مظاهر الاهتمام بهذا الجانب؛ التنوع في المفردات الدالة على هذا المعنى، وكثرة تكرارها، فقد وردت (تفكّر) ومشتقاتها التي تندرج في مضمونها سبع عشرة(١٧) مرة في القرآن الكريم؛ منها خمسة مواضع تحض على إعمال الفكر في الحكمة من أقدار الله وتشريعاته،

وخمسة مواضع أخرى تأمر بإعمال الفكر بما يُضرب من أمثال، ومعالجة الأمور بالمنطق والعقل، وسبعة مواطن تشير إلى التفكر في الحكمة فيما خلق الله والقدرة على ذلك.

أما مادة (العقل) وما ينصرف منها فقد وردت في تسعة وأربعين موضعاً من القرآن الكريم، والإشارة إلى أصحاب العقول، وخصهم بالحديث، وردت تحت مفردة الألباب في ستة عشر موضعاً، ومادة التذكر بمعنى الفهم والاعتبار، فقد وردت في تسعة وثمانين موضعاً في القرآن الكريم؛ لتحث على الاتعاظ من تجارب الآخرين، وعدم الوقوع في أخطائهم، وتجنب مزالقهم. وهكذا نرى أن القرآن الكريم قد حث على استخدام العقل وإعمال الفكر، في كل ما يتعلق بأمور الدين والدنيا، في مائة وواحد وسبعين موضعاً، فيما أحصيناه.

كما وردت الإشادة بالعلماء وأهل العلم، في موضع الحديث عن آيات الله وفهمها وإعمال العقل فيها، ومعرفة المغزى مما يرد فيها من أمثال للعبرة والاتعاظ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ **(العنكبوت ٤٣)**. وفي قوله تعالى:﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ **(الروم٢٢)**.

والعالِمون هم العلماء الراسخون في العلم على اختلاف تخصصاتهم. كما أن الشيء الوحيد الذي أمر الله رسوله بطلب الاستزادة منه هو العلم، حيث قال: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ (طه ١١٤).

٢ . تفعيل عبادة التفكّر:

العبادة في اللغة تعني الطاعة والتذلل والانقياد وما ينتج عنها. ومفهوم العبادة في الإسلام واسع، ومتعدد الأوجه، فهو ليس كما يفهمه بعضهم من أداء لشعائر على هيئات محددة. وليس أدل على ذلك مما ورد في تعليق عُدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه عندما سمع قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة ٣١).

فقال: «يا رسول الله، إنهم لم يكونوا يعبدونهم، فقال له الرسول ﷺ: أجل ولكن يحلّون لهم ما حرّم الله فيستحلونه، ويحرِّمون عليهم ما أحل الله فيحرّمونه، فتلك عبادتهم لهم» (رواه البيهقي).

فكل ما يقوم به المسلم استجابة لأمر الله وطاعة له، يدخل في باب العبادة. وبذلك تتنوع أشكال العبادات وتتعدد؛ فإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ

وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (آل عمران ١٩١)، أدركنا أن التفكر في خلق الله، هو لون من ألوان العبادة. بل ربما هو عبادة متقدمة تهب الحياة لبقية العبادات، وتبث فيها الحركة والحيوية؛ لتتحقق من تلك العبادات غايتها، فتتهذب النفس البشرية، ويظهر عطاؤها واقعاً ملموساً في خدمة الناس وإعمار الكون.

بل لعلها العبادة التي بنيت عليها وبها أركان الحضارة الإسلامية، فتوسعت في مجالات العلوم المختلفة والصناعات وطورتها، ونقحت ما توصلت إليه الحضارات السابقة، فصححت وعدلت ورتبت، وشرحت واختصرت، ثم اكتشفت واخترعت؛ حتى وصلت بالبشرية إلى أرقى درجات الحضارة والمدنية، من علم وأدب، ودين وخلق، في آن واحد، وتناغم بينها جميعاً، لم يسجله التاريخ من قبل ولا من بعد لأي من الحضارات الأخرى، حتى يومنا هذا.

٣ . الالتزام بضوابط المنهجية الصحيحة في التفكير

تعريف المنهجية:

المنهج لغة: هو الطريق المستقيم الواضح الذي يوصل إلى الغاية بسهولة ويسر. والنهج والمنهج والمنهاج في اللغة بمعنى واحد. كما يتضمن معنى الإسراع في السير في الطريق لوضوحها

أو في إنجاز العمل لوضوح طريقته. وأصل هذه الألفاظ لغة من الجذرنهج وأنهج بمعنى وضح واستبان وصار نهجاً واضحاً بينا. جاء في التنـزيل الحكيم قوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ **(المائدة ٤٨)**.

والمنهج اصطلاحاً: هو مجموع القواعد العامة والخطوات والقوانين المنظمة التي تحكم عمليات العقل خلال البحث والنظر في مجال معين. والمنهجية باختصار هي «علم بيان الطريق».

ضوابط التفكير الصحيح:

ومما تقدم في موضوعي (التفكّر والتفكير)، و(عبادة التفكر) نجد أن المنهجية الإسلامية في تشكيل العقل المسلم، تدفعه على الدوام إلى إعمال الفكر تحليلاً وتفكراً واستنباطاً وملاحظة، لكل ما يدور حوله في هذا الكون الرحيب، وبذلك ينشأ المسلم وقد غرست فيه عادة التفكر في كل شيء؛ فلا تفوته شاردة ولا واردة من مشاهد الكون إلا أعمل فكره فيها، وأخذ منها العبرة والفائدة بما فتح الله عليه من الفهم والاستيعاب. ثم تلمس ما ترشده إليه من جوانب عمليه تفيد في عمارة الأرض، وتعينه على مهمة الاستخلاف فيها.

وبذلك أنتجت هذه المنهجية في التفكير علماء أفذاذاً، برزوا في كل مجال، وأبدعوا في كل فن، وبنوا حضارة متميزة، ما زالت البشرية تجني ثمارها حتى يومنا هذا. وما كان لهم أن يصلوا إلى ما

وصلوا إليه؛ لولا خروجهم عن المألوف في طريقة التفكير التقليدية؛ إذ إن طريقة التفكير النمطية المعتادة لا تأتي بخفايا الأمور ومكنوناتها الدفينة في العمق، ولا تدرك ما بين السطور وما وراء الكلمات؛ كيما تأتي بالجديد. فمن ألف رؤية السماء من فوقه والأرض من حوله، لن يرى فيهما غير الظاهر السطحي الذي يراه غيره، مهما عاود النظر إليها بنفس النظرة المألوفة. فالفرق بين الشخص العبقري والعادي، يكمن بقدرة الأول على اختراق حجاب المألوف، والخروج من أسر العادة، والتفكير بطريقة متحررة خارج المحبوبات المألوفة. وقد التزم هؤلاء العلماء الدعاة بضوابط التفكير السليم ومنها الآتي:

أ . التفكر في الخلق لا في ذات الخالق:

لا يمكن للعقل البشري إدراك كُنه الخالق؛ وذلك لضعفه ومحدوديته، وبالتالي فلا طائل من استخدام هذه الأداة لغير ما صُنعت له، بل إن ذلك لا شك يُتلفها و يفسد غايتها، وإن صانع هذه الأداه (العقل) هو الذي بيّن ذلك وقرره في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ **(آل عمران١٩١)**.

فقال يتفكرون في «خلق» السماوات والأرض، ولم يقل: في «خالق» السماوات والأرض. والآيات في كتاب الله كلها تحث على

إعمال الفكر والعقل في خلق هذا الكون المنظور؛ لإدراك صفات الخالق لا ذاته؛ إذ لا سبيل للإنسان إلى ذلك. والرسول يوجهنا في ذلك، التوجيه السليم فيقول: « تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله» (رواه الطبراني). وزاد في رواية أخرى عن ابن عباس أيضاً: «فإنكم لن تقدروا قدره».

ب. التعامل مع القرآن الكريم على أنه كتاب هداية :

لم يذهب هؤلاء العلماء الدعاة بعيداً – أكثر مما ينبغي – في تعاملهم مع النصوص الشرعية، وعلى رأسها كتاب الله عز وجل. فأثناء التفكير بآيات الله المسطورة وإسقاطها على آيات الله المنظورة في الكون، لم ينسوا أن هذا القرآن قد أنزل على الرسول كتاب هداية وتشريع وإرشاد إلى الطريق القويم الذي يُصلح للناس دينهم ودنياهم، وليس بهدف تزويد البشرية بالمعلومات الثقافية وتفاصيل المعرفة العلمية.

وقد أكد العالِم الداعية الأستاذ الدكتور زغلول النجارعلى هذا المفهوم، بأن القرآن كتاب هداية للبشر، وليس كتاباً للعلم والمعرفة ، موضحاً ذلك في قوله: «أشار القرآن الكريم في محكم آياته إلى هذا الكون ومكوناته بما يقارب ألف آية صريحة، بالإضافة إلى آيات تقترب دلالتها من الصراحة. وردت هذه الآيات من قبيل الاستشهاد على بديع صنع الله سبحانهَ وتعالى، ولم ترد بمعنى أنها

معلومة علمية مباشرة تعطى للإنسان لتثقيفه علمياً».

ج ـ عدم الخوض والإبحار في غير التخصص:

التفكر في آيات الله في الكون من حولنا من أهل العلم والاختصاص، والربط الصحيح بين ما يحيط بنا من ظواهر كونية واضحة أو حقائق علمية مطلقة، وبين ما نتلوه من آيات قرآنية أو نصوص لأحاديث نبوية قطعية الدلالة والثبوت؛ أمر في غاية الأهمية، يأتي بما يبهر العقول والألباب، وربما يرفع منسوب الإيمان عند الإنسان. ولكن لا بد من الحذر والتحذير من الاعتماد على نص ظني الدلالة، أو فرضية علمية غير ثابتة.

ولا بد من التحذير من مزالق الرغبة بالإتيان بما هو جديد، للحاق بركب العلماء الدعاة الأفذاذ، فيخوض البعض في غير تخصصه، أو يُبحر إلى أعماق لم يبلغها علمه، أو يُحمل الأمور ما لا تحتمل، كي يبرهن على صحة فكرته.

وعلى هذه المعاني يؤكد د. زغلول النجار في مجال الإعجاز العلمي فيقول: «أما الإعجاز العلمي للآيات الكونية فلا يجوز أن يوظف فيه إلا القطعي من الثوابت العلمية، ولا بد للتعرض لقضايا الإعجاز من قبل المتخصصين،كلُ في حقل تخصصه».

د. الاستناد إلى القيم والمعايير الأخلاقية:

التوجه إلى جلب النفع ودفع الضرر لتحقيق مصالح الناس في دينهم ودنياهم، يجب أن يكون هو الهاجس الأكبر في نفس العالِم. فمدار الأمر في الشرع هو دفع الضرر عن العباد، وجلب المصالح لهم. وهو من مقاصد الشرع وأسسه العظيمة.

فيجب أن يكون التوصل إلى ما يحقق الخير للبشرية، ويدفع عنهم ما يضرهم، أهم محرك للعالِمِ المسلم. وليس مقبولاً منه مطلقاً البحث والتنقيب عن أمر يوقع بهم ضرراً أو يمنع عنهم خيراً. بل لا يجوز له أن يكتم ما قد يفتحه الله عليه ويوفقه إليه من علوم ومعارف تعود على البشرية بنتائج إيجابية.

هـ. الالتزام واستمطار الفتوحات الربانية:

فإخلاص النية والتوجه بالدعاء إلى الله عز وجل، يأتي دائماً مع إحسان العمل وإتقانه؛ للحصول على الثمرة الطيبة، ونيل المنى وبلوغ المرام. فبغير توفيق الله، مهما أحسن العمل وأتقن لا يمكن الوصول إلى النتيجة المرجوة وصدق من قال:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يقضي عليه اجتهاده

والاشتغال في مجال العلم النافع، والانشغال به؛ مظنة رضا الرحمن وتوفيقه، فإذا حصل عليهما العالم (الرضا والتوفيق) جاءت

الفتوحات الربانية. فيفتح الله له مغاليق الفهم، فيحل معضلة شائكة، أو يأتي بمعلومة جديدة كانت خافية، أو يلقنه الله الحجة والدليل ليوضح أمراً ملتبساً.

وكلها قد تكون أموراً بحث فيها غيره من السابقين من أهل العلم، ولكن الله اختصه من دونهم - لحكمة أرادها وجاء أوانها - بالفتح والإفهام.

ومن كمال التزام العالِم الداعية، وحُسن تأثيره، تواضعه وجمال مظهره الشخصي، وابتسامته الجاذبة، والتزامه بوعوده ومواعيده، واستعماله للتقنيات الحديثة، وسلاسة أسلوبه وبساطته، وقدرته على إيصال فكرته إلى كل الناس على اختلاف الأفهام والمستويات.

٤. الإبداع في الربط الصحيح بين الآيات المنظورة والآيات المسطورة:

لقد خاطب الله عز وجل الناس عامة، وأرشدهم إلى التفكر وإعمال العقل، وخص في خطابه، أهل التخصص والعلم بالفهم والعقل والإدراك، لما يضربه من أمثال، ويعرضه من آيات، فهم من يدرك قيمة ذلك ومعناه، وبهم. يُناط تحقيق هدفه ومبتغاه، وإلا ضاع المعنى المقصود، ولم يُتوصل منه إلى الفائدة المرجوة، وقد جاء الخطاب لأهل العلم عامة دون تخصيص لمجال عن مجال، أو تمييز لتخصص على تخصص، بل هو خطاب موجه لكل متخصص على حد سواء.

وهذا يعني أن كل ذي علم وكل ذي تخصص، مطالبٌ بالإفادة مما علّمه الله، واستخدام أدوات العلم الذي يسره الله له، في كشف نواميس هذا الكون، وتوجيهها التوجيه الصحيح الذي يُصلح الحياة البشرية ويفيد الناس منها؛ بل ويُعرّفهم عظمة خالقهم من خلالها، ويوثق عُرى إيمانهم بالله، ويدعوهم إلى تعظيمه، وتسبيحه، وإدراك معاني أسمائه الكاملة وصفاته التامة. فهذا دوره في الحياة، وهنا تكمن أهمية وجوده في المجتمع، وتبرز قيمته في بناء الحضارة العلمية، وتعميق الوعي الإيماني. وبذلك يكون قائداً للناس، ومعلماً وقدوة ومنارة هداية ورشاد. فعلى عاتق العلماء وأهل الاختصاص، التنقيب عن كنوز الكون المدفونة في ثنايا ما أنزله الله من علم،وعلمه للبشر؛ ليتعرف الإنسان من خلالها على خالق الأكوان، رب العالمين. وبغير ذلك فلا قيمة له ولا لعلمه، ولا معنى لوجوده إذ تساوى بعدمه، فمن لا يُضيف في الحياة شيئاً كان هو عالة عليها.

أما العلماء العاملون، الذين أفنوا حياتهم في ترسيخ العقيدة ورفع منسوب الإيمان، والاشتغال بما ينفع الناس؛ فقد تفرد التاريخ بذكرهم دون غيرهم، إلاّ أن الذين أشتغلوا بالعلم كانوا أكثر من ذلك بكثير، وبلغوا أضعافاً عمن بلغنا ذكرهم، ووصل إلينا علمهم. والسؤال هنا: لمَ لم يبلغنا إلا ذكر هؤلاء؟ وبمَ اختلف هؤلاء عن غيرهم؟، واقع الأمر أن هؤلاء قد لا يكونون أغزر علماً من غيرهم،

لكنهم تميزوا بأنهم علموا وعملوا وعلّموا فورّثوا من ينقل العلم النافع، وما يمس حاجات الناس.فيُكمل نقصهم، ويقوي ضعفهم ويقيل عثرتهم؛ فيتقبلونه قبولاً حسناً، ويؤثر فيهم تأثيراً يجعلهم يحملونه في قلوبهم وعقولهم وينقلونه إلى غيرهم، ويورثونه لمن بعدهم علماً تنتفع به الأجيال. وهكذا يكتب الله لمثل هذا العلم النافع أن يُخلّد ويُنشر، بينما يُغمر الآخر ويدثر .

نماذج معاصرة من العُلماء الدعاة

إنّ استعراض سيرة العلماء الدعاة وتقديم أمثلة ونماذج من مختلف مراحل التاريخ، وأنواع التخصصات ما يوضّح ويُحفز، والتاريخ الإسلامي يزخر بالأمثلة، ولكن العبرة قد تكون أعمق والمحفز للشباب أقوى، والنموذج أفعل؛ إذا كان من التاريخ المعاصر أو المعاش. لهذا آثرنا أن نعرض نماذج معاصرة، لأناس من أهل العلم في فنون مختلفة، لاقوا قبولاً بين عامة الناس وخاصتهم؛ فأضافوا للدعوة إلى الله روحاً جديدة، وأثّروا في المجتمعات تأثيراً بليغاً، عرّفوا الناس بربهم؛ فحببوه لهم، ومن حيث أحبوه لا شك في أنهم أطاعوه، وكل ذلك من خلال النظر في آيات الله الكونية، وربطها بآياته المحكمة المنزلة، وتقديم ذلك للناس بأسلوب يسهل عليهم فهمه واستيعابه. فقادوهم للوقوف بين يدي ربهم، مسبحين معظمين، مهللين مكبرين، خاضعين خاشعين، يلهجون بحمده من قلوب ملأها العلم يقيناً به.

١ . الطبيب الداعية الدكتور مصطفى محمود رحمه الله

وهو طبيب ومفكر وكاتب مصري، ولد عام (١٩٢١)م، درس الطب وتخصص في الأمراض الصدرية، ولكنه تفرغ للكتابة والبحث والدعوة. وهو صاحب البرنامج التلفزيوني الشهير «العلم

والإيمان»، الذي تناول فيه العلم على الأسس الإيمانية، وقدمه في (٤٠٠) حلقة، على مدار ثماني عشرة سنة، استطاع من خلاله أن يمزج بين عجائب وغرائب هذا الكون العجيب الذي نعيش فيه، وبين الإيمان بوجود الله سبحانه وتعالى، وقد لاقى قبولاً في العالم العربي والإسلامي منقطع النظير.

٢ . الجيولوجي الداعية الأستاذ الدكتور زغلول النجار

عالم فذ، وداعية بارع، أسس بعلمه الموسوعي للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ولد عام (١٩٣٣)م، ظهر نبوغه مبكراً في جامعة القاهرة حيث كان أول الحاصلين على جائزة مصطفى بركة لعلوم الأرض عام (١٩٥٥)م. وحصل على الدكتوراه في علوم الأرض من جامعة ويلز عام(١٩٦٣)م، صدر له أكثر من ثلاثمئة وخمسين بحثاً، وألف أكثر من خمسة وسبعين كتاباً منشوراً باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية. تضمنت ثلاث موسوعات: في الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وفي التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن الكريم، وفي الإعجاز العلمي في السنة النبوية المطهرة. كما سجل ثلاثمائة حلقة تليفزيونية، حول تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم. ولا زال يجوب الأرض محاضراً بلغات مختلفة، داعياً إلى الله على بصيرة.

٣ . التربوي الداعية الدكتور محمد راتب النابلسي

وهو الداعية التربوي المتميز وهو محاضر من الطراز الأول، ألفته أذن المستمع من خلال دروسه ومحاضراته القيمة. تميز أسلوبه بتتبع المعلومة العلمية الدقيقة، في مختلف ميادين العلوم الكونية والتطبيقية. كان لمعظم نشاطاته الدعوية، وبخاصة الخطب والدروس والمحاضرات والكلمات التي يلقيها في المؤتمرات، الحظ الأوفر بالبث عبر الإذاعات العربية والإسلامية؛ نظراً لما تتمتع به من مضمون دعوي متميز، وأسلوب أدبي فني رائع، بعيداً عن التطرف والشطط.

هو من مواليد دمشق سنة (١٩٣٨)م، لزم دروس العلم الشرعي لعدد من علماء دمشق حيث درس التفسير، والحديث، والفقه، والسيرة، والفرائض، ونال إجازة إسلامية في رواية الحديث الشريف من أستاذة في كلية الآداب العلامة الدكتور الشيخ صبحي الصالح؛ أستاذ علوم القرآن، وعلوم الحديث، وفقه اللغة، في جامعة دمشق. ثم تخرج من معهد إعداد المعلمين بدمشق، ثم حصل على الإجازة في آداب اللغة العربية وعلومها، فدبلوم التأهيل التربوي بتفوق من جامعة دمشق. حصل على الماجستير في الآداب من جامعة ليون (فرع لبنان)، والدكتوراه في التربية من جامعة دبلن في إيرلندا. عمل في حقل التعليم الجامعي، قرابة ثلاثين عاماً لمادة الإعجاز

العلمي في القرآن والسنة، كما أشرف على مجلة نهج الإسلام التي تصدرها وزارة الأوقاف في الجمهورية العربية السورية. وله العديد من المؤلفات: من أشهرها سلسلة أسماء الله الحسنى، وموسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. وما زال يجوب الآفاق بعلمه، ويُلاقي القبول الحسن حيثما كان.

في كل علم آياتٌ تنتظر العالِم الذي يعقلها

جعل الله الأفهام والعقول متفاوتة القدرات في المجال الواحد، متنوعة المواهب بمختلف الفنون والعلوم. فجاء التباين بينها واسعاً والاختلاف كبيراً. فاستوعبت حكمةً الله مختلف الأذواق والميول، وأشبعت جميع المستويات، وغمرت كافة الأفهام. وعلى كثرة الاكتشافات العلمية وتعددها، إلا أنه مع كل اكتشاف جديد، أو ثورة علمية حديثة، تتفتح المزيد من الآفاق لإبداع العقل البشري، وتوسيع مداركه، وتضخيم علومه ومن ثم اختراعاته واكتشافاته ... وهكذا.

ولهذا لا يمكننا القول إننا -معشر البشر- قد بلغنا كمال العلم، في أي مجال من المجالات، أو فن من الفنون، فكلما ازداد الإنسان علماً ازداد معرفة بمقدار جهله، ومن ثم ازداد تواضعاً، ويبقى دائماً فوق كل ذي علم عليم، تتطاول الأعناق إلى الاقتباس من علمه، وتشرئب إليه القلوب، وتتوق النفوس إلى الاستزادة منه. وهنا يكمن السر المحفز الذي لا يتوقف؛ لطلب العلم والبحث عن المزيد، واكتشاف ما لم يُكتشف بعد، لأنه دائماً هناك المزيد. وهناك آياتٌ من آيات الله الكونية، تكمن في كل علم من العلوم، تنتظر العالم الذي يعقلها، ويخرجها للناس لعلهم ينتفعون بها ويعتبرون، ورحم الله «أبا العتاهية» إذ قال:

وفي كـل شيءٍ لـه آيـةٌ تـدلُّ على أنُـه الواحدُ

وهذا يضع كل ذي فنٍّ وعلمٍ وتخصصٍ أمام مسؤولياته، في إعمال كل ما أعطاه الله من قدرةٍ ذهنيةٍ وفكريةٍ في مجاله، للإتيان بالجديد المفيد، على أرضية تفعيل عبادة التفكر، والمنهجية الإسلامية في التفكير.

المعاهدةُ الصامتةُ

لقد حفظ الله الجنين في قرار مكين، في رحم أُمه، بعيداً عن الجراثيم، وأحاطه بما يحميه بإذن الله من السوء. ولذلك فإنه عندما يولد يكون معقماً من الناحية الجرثومية، ولا يلبث كذلك إلا ساعات تتراوح بين (٤-١٢) ساعة، حيث تدخل الجراثيم زوره وحلقه مع الهواء، أثناء التنفس، وتحط على جلده مع ذرات الهباء المتطايرة في الجو، وتدخل إلى أمعائه، مع حليب أمه، أثناء الرضاعة، والتّماس مع جلدها.

هذه الجراثيم على اختلاف أنواعها، لا تبقى ساكنة بل تنمو وتتكاثر، وتزداد عدداً وتنوعاً، حتى تصل إلى أرقام مخيفة، فمثلاً على الجلد يتراوح عددها ما بين(٢٠-١٠٠) مليار جرثومة، أما في الأمعاء فالعدد أكثر بكثير، ولا يعرفه حقيقة إلا الذي خلقها، وقد قرر العلماء أن الغرام الواحد من براز الإنسان يحوي أكثر من مائة مليار جرثومة، تتضاعف باستمرار، وغالبيتها العظمى (٩٦-٩٩٪) من النوع اللاهوائي، الذي ينشط بغياب الأوكسجين.

فما الذي يمنع هذه الجراثيم من أن تأكل جسد صاحبها ..؟ ما دامت تنمو وتتكاثر وهي داخله..؟ وعلى ماذا تتغذى هذه الجيوش الجرارة إذن..؟ بل ما مبرر وجودها بهذه الأعداد الهائلة في الأمعاء؟ خاصة إذا علمنا أنها تحاول بكل ما تستطيع أن تصل إلى الدم، حيث

الغذاء المفضل لديها..؟ ومن خلاله إلى جميع أجزاء الجسم..!! ولكنها لا تستطيع .. فلماذا ومن الذي يمنعها ؟

الله تبارك وتعالى الذي خلق هذه الميكروبات وبثها، قد خلق في جسم الإنسان جهازاً خاصاً، للدفاع عنه، وحمايته من الجراثيم وغيرها. وبث قواته في كل جزء من جسمه..! «لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ...» هذا الجهاز ينتظم في سلكه مليارات الأفراد من القوات، ولديه وسائل اتصال سلكي ولا سلكي، ويعمل ليل نهار، بطرق تكنولوجية دقيقة، تعجز عنها أعظم الجيوش البشرية.

ولولا فضل الله، ثم وجود القوى المناعية هذه على اختلاف أنواعها، لما صمد جسم الإنسان أمام هذا الكم الهائل، والأعداد الغفيرة، من الجراثيم، التي تعيش في أمعائه، وعلى جلده، ومجرى التنفس عنده، وتحيط به من كل جانب.

وقد خلق الله للإنسان في هذا الجهاز خطوطاً دفاعية، تعمل بنظام تكاملي، وبدقة متناهية، لا تتوقف ليلاً ولا نهاراً، فهي دائماً متيقظة، تعمل دون كلل أو ملل، لا تعرف إلا الإخلاص، والإتقان، والتفاني في خدمة صاحبها.

فالخط الدفاعي الأول، يتمثل بشكل رئيسي، في الجلد والأغشية المخاطية، وبعض المواد الكيماوية، الموجودة على الجلد،

والدمع، والمواد المخاطية، والشعيرات الطاردة، فإذا استطاعت بعض الجراثيم، التسلل إلى الداخل، فإن جيشاً من جنود خط الدفاع الثاني وخلاياه لها بالمرصاد. هذه الخلايا تصنع في نخاع العظم، وترسل إلى مراكز التدريب والإنضاج والتخصص، ثم ترسل إلى مواقع العمل في الجلد أو الأمعاء أو الرئتين، وكل نوع له قدرات ومهارات، اكتسبها للقبض على الجراثيم المتسللة، وبلعها وقتلها، وربما استدعى قوات إضافية عند الحاجة.

هذه الخلايا في الخط الثاني، منتشرة في كل مكان من جسم الإنسان، فكل مللميتر مكعب من دم الإنسان فيه حوالي عشرة آلاف خلية. وكل خلية عبارة عن جندي مسلح جاهز للعمل. وهذا الرقم يمكن أن يصبح عشرين ضعفاً، خلال ساعة واحدة، إذا ما داهمت الجراثيم الغازية الجسم، واستباحت حرمته، فتدوي صفارات الإنذار في الحال، ويحصل النفير العام، في كل أنحاء الجسم.

وأما الخط الثالث فهو أكثر دقة وتعقيداً، ويعمل في الوقت المناسب، بطريقة بديعة منسقة ودقيقة. وهو عبارة عن خلايا ليمفاوية تسمى «الخلايا البائية»، وتصل إلى مائة مليون نوع، كل نوع قادر على إطلاق قذائف متخصصة، ضد الجراثيم الغازية. وتستطيع الخلية الواحدة أن تُطلق آلاف القذائف في الثانية، وهكذا تطلق الخلايا الليمفاوية مليارات المليارات من القذائف في الدم،

تسمى الأجسام المضادة، تتولى مطاردة الميكروبات الغازية والقضاء عليها.

هذه الخطوط الدفاعية الثلاثة بما يساندها من وسائل كيماوية، واتصالات لا سلكية، تتعاون بطريقة تكاملية مذهلة، فكثرة أفرادها لا يعرقل عملها، بل يزيدها قوة ومنعة، ولديها من وسائل الاتصال الحديثة، والتنسيق العجيب، ومن القدرة على معرفة العدو من الصديق، إلى الحد الذي ما زال يحير الأطباء... ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ **(النمل ٨٨)**.

هذه الجيوش الجرارة، من قوات جهاز المناعة، التي تعمل ليل نهار، لتحمى أجسامنا، يقابلها جيوش موازية من الميكروبات، التي تنتهز أي فرصة، يضعف بها جهاز المناعة، أو يغفل عن صاحبه، فتهجم عليه، وتؤذيه ولو قليلاً، ثم لا تلبث أن تندحر أمام قوات جهاز المناعة المختلفة، التي يتمتع بها الجسم.

وهكذا تستمر المناوشات الخفيفة والمتقطعة، ولكن بدون أصوات، وبصمت رهيب بين كر وفر، ليلاً ونهاراً دون أن تحس بذلك، رغم حصوله مئات المرات في جسمك يومياً. ودون أن تحسم المعركة من طرف ما، أو ينقض طرف منها على الآخر في معركة فاصلة، فلا يحدث هذا، ما دام الإنسان حياً، وفي وضعه الطبيعي من الصحة.

فالأمر أشبه ما يكون بمعاهدة صامته، غير مكتوبة، تحترمها كل الأطراف، فلا جهاز المناعة يقضي على عدوه بالضربة القاضية، ولا تهجم الجراثيم الغازية دفعة واحدة، لتقتل جهاز المناعة، ما دام الإنسان حياً، ولكن الأمر يتغير كلياً عندما يموت الإنسان..!!

فما الذي يحصل للإنسان عند الموت؟ وما الذي يتغير،؟؟

كان قبل لحظة يتحرك، ويتكلم، فأصبح جثة هامدة لا حراك فيها، كان يأكل ويشرب، بل يلعب ويبتسم، فأصبح جسداً هامداً كقطعة خشب..! يا إلهي ما الذي حصل،؟ ماذا فقد جسمه في طرفة عين حتى أصبح هكذا،؟! سبحان من قهر عباده بالموت،!! وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ **(العنكبوت ٥٧)**.

تناديه..!! تحاول إيقاظه بشتى الوسائل ... فلا مجيب..! لا فائدة لقد مات... مات... ماذا يعني ذلك...؟ خرجت روحه! ... ما هي الروح؟... لم نغادره لحظة، لم نر شيئاً يخرج...!!

نحن في عصر العلم، الذي قرَّب البعيد، وجعل العالم قرية صغيرة، واختصر الزمان، وجعل ما على سطح الأرض، وكثيراً من الكواكب أمام ناظريك، في لمح البصر، حيثما كنت، رغم هذا كله، ورغم تكرار حادثة الموت، ملايين بل مليارات المرات، إلا أن الإنسان سيبقى حائراً أمام معجزة الروح، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ

مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ **(الإسراء٨٥)**.

هذه المعجزة ليست في مجال مدارك الإنسان، ولن تكون يوماً بحدود إمكاناته البشرية، مهما أوتي من علم ومعرفة وتكنولوجيا، وهكذا يتجلى العجز البشري الدائم، بخاصّة عندما تقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ **(الواقعة ٨٣-٨٧)**.

فما أن تخرج الروح من الجسد، حتى تهجم عليه جيوش هائلة من الميكروبات، التي كانت تعيش قبل ذلك في فمه، وأنفه، ومعدته وأمعائه، وعلى جلده، وبعد أيام تطول أو تقصر، يدب فيه التعفن والتحلل، فيتحول إلى هيكل عظمي، ثم يؤول هذا إلى زوال. ولولا هذه العملية الديناميكية لتحولت الأرض عبر السنين إلى كومة من الجثث الحيوانية والبشرية والنفايات والمخلفات، ولكن شيئاً من ذلك لم ولن يحدث أبداً. إذ قضت سنة الله في هذا الكون، أن يعود كل شيء إلى أصوله ... غازات ... عناصر ... تراب، فكما بدأ الإنسان يعود، تبعاً للحقيقة الخالدة التي قررها الله تبارك وتعالى في قرآنه الكريم، من فوق سبع سماوات، بقولـه: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ **(الأنبياء ١٠٤)**.

وكما ذكر في محكم كتابه: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ (طه ٥٥).

ترى ما الذي حدث بعد خروج الروح من الجسد..؟ ببساطة شديدة لقد تهدمت بالموت خطوط الدفاع الحية، التي تقف مع الجسم في حياته ضد غزو الميكروبات، إذ لولا هذه الخطوط العظيمة لفتكت به الجراثيم من قبل، ولما قامت له قائمة. فهذه الخطوط الدفاعية هي بمثابة الحفظة والحرس المتيقظ، يحميه من بلاء حقيقي يتربص به في كل آن وحين. ولكن بالموت ينهدم طرف كامل من أطراف المعاهدة، فلا يبقى ما يقف أمام الطرف الثاني، فينطلق ويفتك بالجسم ويعيث فيه فساداً، ولهذا عرَّف العلماء الموت، بأنه التوقف الكامل لعمل جهاز المناعة وقواته.

ولولا هذه العملية الديناميكية لتحولت الأرض عبر السنين إلى كومة من الجثث الحيوانية والبشرية والنفايات والمخلفات، ولكن شيئاً من ذلك لم و لن يحدث، إذ قضت سنة الله فى هذا الكون أن يعود كل شيءٍ إلى أصوله ..غازات ..عناصر ..تراب.

فكما بدأ الإنسان يعود، سبحان الله ،هذه هى القاعدة الخالدة والسنة الربانية، فى هذه الحياة التى تحكم جميع المخلوقات وخاصة أكرمها وهو الإنسان.

فكل إنسان مهما كانت حياته منعمة، ومهما قدمت له من

عيش رغيد، ومن فرص الراحة و الصحة و العناية، إلّا أنّ الموت آتيه لا محالة، ومهما كانت منزلته فى الدنيا، فقيراً أو غنياً، صغيراً أو كبيراً، أبيض أو أسود، ذكراً أو أنثى ، فنهايته إلى الحفرة الصغيرة، إلى هذا القبر، بيت الدود.

إن سنة الله فى الكون ماضية إلى يوم القيامة، لا يُعطلها ولا يُحولها إلا الذى وضعها متى شاء، و لمن شاء، و كيفما شاء..، رفعت الأقلام، و جفت الصحف، فكل شيء بيده سبحانه، يُقلب الأمور كيفما يشاء، والميكروبات من جنوده، وطاعتها لخالقها كاملة.

ففى موقع معين يُرسلها على فطرتها لتقوم بعملها، وتنفذ أمر ربها، وفى موقع آخر، يسحب الله هذه الإمكانية منها، و يأمرها بعدم القيام بالذى تقوم به فى العادة.

والميكروبات من جنود الله المطيعة، التى تشهد بصمت على كرامات أنبياء الله والشهداء الخُلص، فلا تُحلل أجسامهم رغم تواجدها فيهم كغيرهم من البشر، ورغم أنهم يُدفنون فى الأرض وفيها ما لا يُحصى من الجراثيم، فهذه السنة الكونية فى تحليل الأجساد، يُستثنى منها الأنبياء الكرام، ومن صحت شهادته من عباد الله المخلصين.

وصدق رسول الله ﷺ «إن أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه قُبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة. فأكثروا من

الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليّ ..قالوا: يا رسول الله و كيف تُعرض صلاتنا عليك وقد أرمتَ ؟(يقولون أي بليت) فقال: إن الله عز و جل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» (رواه أبو داود).

الجلد سور الجسد العظيم

معلوم بالضرورة أن سور الصين العظيم، أطولُ حاجزٍ من صُنع البشر في العالم، وأنه السور الوحيد الذي أمكن رؤيته من الفضاء الخارجي الأبعد، وقد استغرق بناؤه كاملاً (٢٣٠٠)عاماً على ثلاث مراحل، ويبلغ طوله النهائي (٦٤٠٠)كم، ويتراوح عرضه ما بين(٥ , ٤ – ٩) أمتار، كما يصل ارتفاعه إلى (٥ , ٧) أمتار.

هذا السور اُعتبرَ من عجايب الدنيا السبع، ولكنّني أعتقد بوجود سورٍ أدق وأعظم منه، فيه من الدقة والأنظمة والمميزات والوظايف ما يجعله متفوقاً على سور الصين، وكلما دق الشيء وصغر صعب صنعه وغلا ثمنه وكان أكثر تفوقاً على غيره، وأقصد هنا جلد الإنسان، وأسميه؛ سور الجسد العظيم، وبمقارنة بسيطة ومعلمات أبسط، ستجدك تهتف من أعماق نفسك «سبحانك ربي ما أعظمك»، وشتان ما بين صنع الخالق وصنع المخلوق، وستجد أنّ جلدك هو ألأعجب، وأنه يستحق بجدارة أن يُطلق عليه عجيبة من عجائب الله المختلفة.

الجلد هو أوسع عضو في جسمك و مساحته متران مربعان، وسمكه يتراوح من (٥ , ٠ – ٥)مليمترات، ويُحيط بكامل الجسم ويرتبط بكل أجهزته الداخلية، وهوعضو إحساس من الطراز الأول، وبه خريطة مدهشة من الأعصاب،

يحتوي على الملايين من نقاط الاستقبال والنهايات العصبية والغدد المختلفة، وهو وسيلة لتعريف الإنسان بما حوله، ولا يمكن للإنسان العيش بدونه، ويتعامل بكفاءةٍ متقدمةٍ جداً مع بيئتين مختلفتين تماماً (داخل الجسم وخارجه).

وهو مكون من طبقتين، البشرة الخارجية وتتراكم فيها الخلايا الميتة تماماً، كحراشف السمكة لتُشكل الطبقة القرنية؛ التي تفقد في كل ساعة ما معدله (١,٥) مليون خلية ميتةٌ، و تتبدل خلايا سطح الجلد الميتة مرة كل ثلاثة أسابيع، هذه الخلايا الميتة ممتلئة ببروتين الكيراتين لتشكل الطبقة القرنية، هذه الطبقة الخارجية تسمح بخروج الماء من خلالها ولا تسمح بدخوله، وهذا من أكبر النعم على الإنسان، إذ يستطيع إخراج العرق للترطيب ولا يسمح للماء بالدخول، لئلا ينتفخ الإنسان وينفجر لو وُضع ببركة ماء لبضع ساعات.!!

أما الطبقة الثانية من الجلد فهي الأدمة؛ وهذه ترق وتفقد مرونتها مع تقدم السن، ولهذا تظهر التجاعيد عند كبار السن، وتحتوي كل بوصة من الأدمة على (٦٥٠) غدة، وعشرين شُعيرة دموية وألف نهاية عصبيةٍ، وفيها خلايا متنوعة تابعة لجهاز المناعة، وفيها مقر بصيلات الشعر وعضيلاتها الناعمة.

الجلد والجراثيم:

يذكر عالم الجراثيم الدكتور «كلقمان» بأن جلد الإنسان من حيث السعة، والحرارة والرطوبة، والارتفاعات والانخفاضات المختلفة، وما عليه من أنواع الجراثيم المتآلفة حيناً، والمتحاربة أحياناً؛ يُشَبِّهه بسطح الكرة الأرضية، وما يسكنها من مخلوقات مختلفة ومنبثة بين السهول والجبال وفي البحار، وفي مختلف الظروف من حرارة وبرودة، وجفاف ورطوبة، وما بينها من حروب وعداوات ومعاهدات، علما أنّ العلماء وجدوا أن كل سنتمتر مربع واحد من الجلد الطبيعي عليه أكثر من مليون جرثومة، ويحمل جلد الإنسان الطبيعي ما بين(٢٠- ١٠٠)مليار جرثومة، كل هذه الجراثيم تتمنى لو تستطيع أن تخترق الجلد وتدخل الى طعامها اللذيذ في الأنسجة والدم، ولكنّ الجلد، سور الجسد العظيم لها بالمرصاد، ويمنعها من ذلك منعاً باتاً، ولهذا أمرنا رسولنا الكريم بالإكثار من الوضوء والاستحمام للتخلص من معظم هذه الجراثيم وخاصة قبل صلاة الجمعة؛ حتى يجتمع المسلمون في المسجد ومعهم أقل حمولة من الجراثيم، وبالتالي أقل أذى لمن حولهم. يقول الرسول ﷺ: «إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ إِلَى الْجُمُعَةِ فَلْيَغْتَسِلْ» (رواه مسلم) وقال: «حَقٌّ للهِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ، يَغْسِلُ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ»(رواه مسلم).

خط الدفاع الأول:

يشكل الجلد حاجزاً منيعاً يحمي الجسم من مليارات الجراثيم المتربصة به ويساعده في ذلك إفراز بعض المواد والإنزيمات والأحماض، مع كل هذا تنفذ بعض الميكروبات إلى الداخل، لتجد جيشاً جراراً من قوات جهاز المناعة لها بالمرصاد. مـوطن هذا الجيش ومسـرح عملياتـه هو الجلـد، حيث تتشكل فيه أنواع مختلفة من القوات المناعيـة ومنها خلايـا «لانجرهانـز»؛ حيث تُمثـل حـرس الحـدود الرئيسـي، وتـعـدادها (١,٦) مليار حـارس، بحيث يوجد ثمانمئة حارس لكل ملمتر مربع من الجلد. ولو قدر لنا أن نطلع على هوية واحدة من هذه الخلايا لوجدنا أن مكان ولادتها هو نخاع العظم ومكان تدريبها وتعليمها هو مراكز جهاز المناعة في الجسم، أما نوع التدريب فهو مهارات وفنون القبض على المتسللين، ومكان العمل هو الجلد كحارس حدود مزود بأسلحة كيماوية ولياقة بدنية متقدمة.

الجلد والشمس:

قلة التعرض لأشعة الشمس تؤدي إلى نقص فيتامين (د)، وكثرة التعرض لأشعتها يؤدي إلى سرطان الجلد وقتل خلايا حرس الحدود «لانجرهانز»، لذلك زوّد الله الجلد بـخلايـا خاصة تحميه من أذى الشمـس، «Melanocyte»وهي الخلايـا القادرة

علـى افراز صبغـة «الميـلا نـيــن». فعند التعرض للشمس تُفرز الصبغة التي تشكل مظلـة فــوق نواة الخلية لحماية المـــادة الوراثيـة «DNA»من أذى أشعة الشمس، وتعمل على تفريقها وإبعادها، ويختلف لون الجلد من شخص لآخر تبعاً لكميـة الصبغــة ولونـهـا وتوزيعها، بالإضافة إلى العوامل الوراثية، وهذا بحد ذاته إعجاز عظيم حيث يقول المولى عزوجل في كتابه العزيز: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ (الروم٢٢).

الجلد وحرارة الجسم:

أولاً: الشعيرات الدموية: للشعيرات تمديدات على شكل شبكتين أفقيتين في الجلــد، كل يغذي منطقة، بحيث تتضيق الشرايين الدقيقة في البرد وتحول الدم إلى شبكـــة الأوردة وهي الأعمق لتقليل فقدان الحرارة السطحية، أما في الحر تتسع هذه الشرايين والشعيرات وتتمدد لتوسيع السطـح الخارجي لتسريب الحرارة.

ثانيا: الغدد العرقية: يوجد في الجلد (٣) ملايين غدة عرقية تعمل على إفراز العرق في الحر، يفرز الجلد يومياً من خلالها ما بين (٦٠٠-٩٠٠) مللتر من العرق، يتبخر منه عن طريق الجلد (٥٠٠) مللتر يوميـاً، لتبخير واحد مللتر من الماء يفقد الجسم (٥٤٠) سـعراً

حراريـــاً، ولذلك لتبخر العرق عن الجلد دورً مهـمٌ في تخفيــض درجة حرارة الجسم .

ثالثا: جلــد الصفـن: بسبب حساسية الحيوانات المنوية للحرارة جعل الله الخصيتين خارج الجسم، وزودهما بجلد تكسوه ألياف عضلية حساسة للحرارة، فيتمدد بالحرارة لتفقد أكبر قدرٍ منها للحفاظ على حياة الحيوانات المنوية، وينكمش كثيراً في البرد لتحتفظ بالحرارة المناسبة للنطف وهي عادة أقل من حرارة الجسم بـ(٣-٤) درجات مئوية.

الجلد والبصمه:

على رؤوس الآصابع خطوطٌ تلتوي على شكل أقواس ودوائر وتفرعات متناهية في الدقة تسمى بمجموعها البصمة، وهي دليـل قـاطع علـى إثبـات هـويـة الإنـسـان، ولا يمكن أن تتـطابـق تمـامـاً عنـد أي شـخصـيـن فـي العالم، وبصمة الإبهام لها مئة خاصيـة مـن حيـث الشـكـل و الموضـع، ويشترك رجلان من كل مليار فـي عشـرة خصائـص فقط، ويشترك شخص من كل (٢٤) مليار، ويشترك فـي (١٢)خـصـيـصـة فقـط، البصمة لا تتغير مهما طال العمر وإن تلفت تعود كما كانـت، ولكن العزيز الحكيم قادر على كل شيء، ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴾ **(القيامة ٤).**

الجلد والقشعريرة:

تنتشر البصيلات الشعرية في كل مناطق الجلد عدا باطن الكف والقدمين، وينبت في كل سم مربع من الجلد مابين (٤٠-٨٠٠) شعرة، لكل بُصيلة شعر عُضيلة ناعمة وغدة دهنية وأعصاب وشعيرات دمويّة خاصة بها، وظيفة العُضيلة شد الشعرة أو الضغط على الغدة في حالات نفسية معينة، فمثلاً في حالات البرد أو الخوف، هذا الضغط والانقباض يعني نصب الشعر عمودياً وحدوث نتوءات بارزة عن سطح الجلد حول كل شعرة وهذا ما يُسمى بالقشعريرة، أما في حالات الراحة والطمأنينة، فنفس النهايات العصبية توجه نفس العُضيلات للضغط على الغدة الدهنية المتاخمة للشعر لإفراز مادة زيتية تمنع تقصفه. وتُحدث طبقة مُلينة للجلد تحفظه من الجفاف والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾ **(الزمر ٢٣).**

الجلد والجمال:

منظر الإنسان عجيبٌ بل مخيفٌ بدون جلد، ولو قُدر لكم أن تروا الأجسام المحنطة مسلوخة الجلد معروضة في متاحف

التشريح في الغرب، لأصابكم الغثيان ولفزعتم من المنظر، وبعد التقاط الأنفاس لحمدتم الله كثيراً على نعمة الجلد، وشتان ما بين الجلد الناعم المتناسق الجميل وبين الجسم بلا جلد، حيث تظهر الشريانات والأوردة والأعصاب ....الخ، تماماً مثل التمديدات السقفية بلا غطاء، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ **(التين٤)**.

الجلد والإحساس:

الجلد عضو إحساس متقدم وبه خريطة مدهشة من النهايات العصبية. ورغم وجودها في كامل الجلد إلاّ أن تركيزها الرئيسي في الوجه والأطراف، اصطلح على تسميتها علمياً بالحواس الجلدية وهي: اللمس والحرارة والألم، أكثر مناطق التركيز لهذه الحواس هي رؤوس الأنامل(١٣٥) نقطة/ سنتمتر مربع، سرعة الشحنة العصبية الناتجة عن اللمسة البسيطة (١٢٨) متر/ ثانية.

الجلد والألم:

لا يوجد ملمتر واحد في الجلد إلا وفيه عشرات الجُسيمات الناقلة للألم، ثبت علمياً أن الحرق يسبب أقصى درجات الألم والحروق درجات: أولى، ثانية، ثالثة، يصل الألم إلى قمته قُبيل تفحم النهايات العصبية والأنسجة في الجلد، ومقدار الألم يتناسب طردياً

مع مساحة الجلد المحروق، فكيف اذا كان المحروق المتفحم هو كامل الجلد؟ وكيف إذا عاد الجلد بعد تفحمه جديداً لتتكرر رحلة العذاب ؟ وكم هو مقدار الألم اذا تكررت هذه العملية مائة مرة في الساعة؟، فسبحان الكريم الذي يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ **(النساء ٥٦).**

الجلد يتكلم:

يوم القيامة سيتكلم الجلد بقدرة ربه، وما يدرينا إذا بجلودنا الآن ما يُسجل ويصور كما هو ثابت في خلايا الذاكرة التابعة لجهاز المناعة، والله تبارك وتعالى يقول في محكم التنزيل:﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ **(فصلت ٢٠-٢٢).**

صُنع الله:

هذا وغيره الكثير في جلد الإنسان، سور الجسد العظيم، منه ما نعلمه ومنه لا نعلمه حتى هذا الوقت، فإن أطلق على سور الصين العظيم عجيبة من عجائب الدنيا فماذا عسانا نطلق على جلدك؟

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ (لقمان ١١)، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (المؤمنون١٤).

حوارٌ مع مصابةٍ بالإيدز ..

شابةٌ في نهاية العشرينيات .. رفيعة القوام .. قمحية اللون .. ترتدي نقاباً أسود، وجهها يعكس مسحة من جمال سابق «ذابل» ... عيناها مرهقتان، تغطيهما سحابة من الدموع المتحجرة.طلبت من موظف الاستقبال مقابلتي شخصياً ثم قالت: أتابع القضايا الإنسانية التي تنشر للرأي العام، ولذلك حضرت إليك لمناشدة القلوب الرحيمة لمساعدة طفلتي، قاطعتها: من ماذا تعاني طفلتك؟ لم تجب، وطلبت مني الانزواء وحدنا بعيداً عن الفضوليين، ففعلت، ثم قالت بصوت ضعيف أشبه بالهمس، ابنتي الطفلة مصابة بالايدز وتحتاج إلى غذاء خاص حسب نصيحة الأطباء حتى لا يفتك بها الفيروس القاتل، لكنني لا أستطيع توفيره، قلت لها: من أين انتقل إليها الفيروس، فأجابت بحياء: مني أنا ! وقبل أن يسبقك تفكيرك وتصفني بالوصمة والعار، السبب أهلي، فقلت باستغراب: كيف..؟ فأخذت تحكي شريطاً من الأحداث الغريبة والمؤلمة.

تزوجت عام(٢٠٠١)م من أحد معارفنا، والذي يعمل محاسباً، في البداية عندما تقدم للزواج مني رفضتُ رفضاً قاطعاً لأنني كنت أرغب في الالتحاق بالجامعة لتحسين وضع أسرتي، وكذلك لأنني لا أعرفه ولم أره من قبل، وأهلي لا يعرفون عنه شيئاً وعن أخلاقه وطبائعه، ورغماً عن ذلك أصر والدي وأمي وعمي

وجدتي على الزواج منه، وهددوني بالقتل إذا لم أوافق على الزواج منه، وفي النهاية رضخت لهم.

متى كان الزواج ..؟

كان عام (٢٠٠١)م، وللأسف اتضح لي أنه مدمنُ خمرٍ، ويعود يومياً بعد منتصف الليل مخموراً يترنح وأحياناً لا يعود وينام خارج البيت.

هل لاحظت ذلك في شهر العسل..؟

حدث ذلك منذ الأسبوع الأول من زواجنا، وكنت أقضي الليل وحيدة وأنا عروس مخضبة بالحناء، ثم علمت أن سبب تأخره إنّه يصاحب بائعة شاي من قبل زواجه بي، بل لديه منها بنتٌ غير شرعية.

كيف تصرفت حيال ما يبدر من زوجك وأنت في أسبوع العسل الأول؟

حاولت أن أهديه للصواب ونسيان الماضي وأكدت له أن ماضيه لا يهمُني، ولكن بعد الزواج عليه الاهتمام بي والتخلص من أفعاله السابقة، فقال إنه سوف يستقيم، ولكن سرعان ما عاد إلى أفعاله، وعندما يئست من إصلاحه اتصلت بوالدتي وشكوت لها الجحيم الذي أعيش فيه، وعاتبتها لأنهم أجبروني على الزواج من شخص لا يعرفون أخلاقه، فطلبت مني الصبر، ثم اختفى لمدة

طويلة، ولم نكن نعلم ما إذا كان ميتاً أو حياً، وبعد عام من اختفائه اتصل بأختي الكبيرة هاتفياً، وأخذ يبكي، وسأل عن ولده وعني، وقال: إنه في مدينة جوبا ثم أغلق الخط ، توجه والده إلى مدينة جوبا لكنّه لم يعثر عليه، وبعد عشرين يوماً من محادثته الأولى اتصل بنا وقال إنه في «ام درمان» وفي طريقه إلى منزلنا، وعندما حضر رفضت السلام عليه فقال لي: اعذريني وأخذ يبكي.

هل أصبح مختل العقل ..؟ لا . لا ... عقله سليم.

وكيف برر اختفاءه الطويل ..؟

قال: إنه كان مسجوناً بتهمة ترويج المخدرات، حيث قضى في السجن حوالى العام، ثم هرب من السجن حسب قوله، وعندما حضر إلينا في «ام درمان» كان بملابسه فقط، لا يحمل معه شيئاً، ثم طلب مني العودة معه لزيارة والدته، وتحت إلحاح والدتي سافرت معه، وأمضينا هناك نحو شهر ثم عدنا، وهناك أنجبت طفلتي الثانية، بعدها عاد زوجي إلى معاملته القاسية وفجوره، فعدت إلى أمي «بام درمان»، إذ لم يكن ينفق على أبنائه لدرجة أننا كنا نأكل مع جيراننا لنصف عام، وبعده قررت الانفصال عنه، وعدتُ إلى «ام درمان» مع أطفالي ورفضتُ العودة إليه مرة أخرى، فلحق بي، وتدخل أهلي بيننا وأقنعوني بالعودة معه من أجل أطفالي، فرضخت كالعادة وعدتُ معه، وهناك أنجبت طفلتي الصغيرة، وعندما

تجاوزت السنتين أُصيبت بإسهالٍ شديد ومستمر وقيء وانتفاخ في البطن، وجاءت والدتي وأخذت ابني معها إلى امدرمان، وذات يوم جاء زوجي من العمل وقال: إنّه يحس بطعنةٍ في صدره، وكان يتنفس بصعوبة وتم نقله إلى المستشفى، ولكنّه توفي هناك بعد يومين عرضت ابنتي الصغرى على الأطباء، وبعد الفحص أخبرني الطبيب أن ابنتي مصابةٌ بالايدز.

ماذا كان رد فعلك ؟...

وقتها لم أكن أعرف ما هو الايدز، وبسذاجة قلتُ للطبيب إنّ ابنتي لم تأكل شيئاً حتى تتسمم، وكنتُ أعتقد أنّ الايدز تسمم من الطعام، فقال الطبيب أنت بريئة، تعالي أفحص لك أيضا، وظهرت نتيجة فحصي بإصابتي بالايدز، وتحولت إلى المرشد الذي قال لي: وأنت مصابةٌ بالايدز، وقتها لم أكن اعرف عن الايدز شيئاً، فاستفسرت المرشد عنه، فقال لي: إنّه مرضٌ لا علاج له، ينتقل عن طريق الاتصال الجنسي، فهل لديك أو لدى زوجك علاقات مشبوهة؟، فقلت له: إن زوجي كانت له علاقات مشبوهة مع بائعات الشاي، فقال لي إنّ زوجك مات بسبب الايدز، وتسبب في انتقاله إليكِ، وأنتِ بدورك نقلتيه لابنتك الصغرى بالرضاعة، وبعد معرفتى أخذت أبكى بكاءً شديداً، فكيف أواجه المجتمع بعد إصابتى بالايدز وكيف..وكيف...؟.

هل تعرف والدتك وإخوتك بإصابتك بالايدز؟.

أولاً اخبرتُ والدتى. وكانت مثلى تجهل ماهو الايدز، ثم أخبرت أخواتى وعددهن أربعة، وأنا خامستهن وأصغرهن، وليس لدينا إخوان ذكور.

كيف كان رد فعل والدتك وأخواتك ؟.

ذكرت لك أنّ والدتى ليس لديها أية معلومة عن المرض، واعتقدت أنه مرضٌ عادى. وكانت طبيعية معى بعد أن أخبرتها بتفاصيله، أمّا أخواتي فتغيرت معاملتهن لي بعد أن عرفن الإصابة، خاصة شقيقتى الكبرى، فبعد علمها بإصابتى وإصابة ابنتى الصغرى أصبحت تعاملنى معاملة قاسية.

هل تعلم الروضة أقصد المعلمات بإصابة ابنتك؟.

بالطبع لا. لم أخبرهنّ وإلاّ لمنعوها من الحضور للروضة، وما يقلقنى حالياً كيف أخبرها بالإصابة عندما تكبر إذا امتد عمرها.

كيف تربين أطفالك؟.

أعيش مع والدتى حاليا لا يساعدنى أحد، وكنت أرغب أن يسترنى رجلٌ آخر بعد وفاة زوجى، حتى أربى أولادى ولكن، مَن هذا الرجل الذي يتزوج امرأةً مصابة بالايدز.

لماذا لا تذهبين لجمعية مصابي الايدز؟

ذات مرة سألت إحدى صديقاتي وهي مصابة، عن كيف يكون

مصيرنا، فوجدتها تعلم كل صغيرةٍ وكبيرةٍ عن هذا المرض، وقالت إنها تعرفت على كل تلك المعلومات من جمعية الايدز، وذهبتُ معها، وهناك وجدتُ كثيراً من المصابين والمصابات، وحكيتُ لهم مأساتى بالكامل، وحقيقة شعرتُ بعدها إنّ عبئاً كبيراً انزاح عن صدري، خاصةً أنني وجدتُ بالجمعية أشخاصاً مثلي تسلحت منهم بالأمل.

هل يعلم أهل زوجك المتوفى بإصابتك وطفلتك بالايدز..؟

لا، لم أخبرهم، وبعد وفاة زوجى حاولوا أن يزوجوني من شقيق زوجي الأصغر كما هو معتاد فى منطقتنا، وهو متزوج ولديه طفلتان، رفضتُ لسبب إصابتى بالايدز، فاعتقد أهله أننى رفضته خلافاً لتقاليدنا، فمنعوا عنّي المصاريف التى كانوا يرسلونها لأولادى وهي فى حدود مائة جنيه كل شهرين أو ثلاثة شهور .

فى بداية اللقاء ذكرت أن طفلتك المصابة بالايدز تحتاج إلى تغذية خاصة، ما نوعها ؟

حذرنى الأطباء ونصحوني بضرورة تغذيتها تغذيةً متكاملة حتى لا تضعُف مقاومتها وتصبح فريسةً سهلةً للأمراض المختلفة. حيث أنها تحتاج باستمرار إلى مقويات وفايتمينات .

وهل تُقدمين هذه الأغذية لطفلتك؟.

(أجابت بسخرية) من أين يا أستاذ..؟ فانا بلا دخل ولا عمل.

كم تبلغ تكلفة التغذية بالتقريب ..؟.

لا تقل عن (٤٠٠) جنيه بالتقريب.

هل تقدمت إلى ديوان الزكاة لمساعدتك ..؟

ديوان الزكاة «بام درمان» سلمني مشكوراً منزلَ إسكانٍ شعبي مجاناً، جزاهم الله عنا كل خير، وذلك بعد أن قدمتُ لهم شهادةً طبيةً بإصابتي بالايدز مع طفلتي وأن أهلي يعاملونني معاملة قاسية.

هل استلمت المنزل فعلاً..؟.

أجل استلمته، لكن لم أسكن فيه مع أطفالي حتى الآن.

لماذا مع أنك تشتكين من معاملة أهلك القاسية وغير الكريمة لك ولأطفالك؟....لأن المنزل بدون خدمات ماء ولا كهرباء ولم أستطع تدبير تكلفة إدخالها.

كم تبلغ الرسوم ؟.

نحو(١٥٠) جنيهاً للمياه و(٣٥٠) للكهرباء ولا أملك منها جنيهاً واحداً.

ذكرتِ أنّ ابنك الأكبر(٩) سنوات يعاني من ثقب في القلب .. هل تم علاجه ؟

لا..حولني الأطباء الى مستشفى للأطفال، ثم تحويلي لمستشفى الخرطوم للقلب، فطلبوا إجراء موجات صوتية بقيمة

(٢٥٠) جنيهاً، خلاف رسوم التسجيل، فعدتُ بابني إلى المنزل وهو لا يزال يعاني، حتى الوصفة العلاجية له، والتي تحتوي على نوعين من مضادات حيوية لم أعثر عليها في الصيدلية الحكومية، ولم أستطع شراءها من الصيدليات الخاصة .

كم تبلغ قيمتها ..؟.

لا أدري لكن سعرهما زهيد حسب ما أعتقد فهي مجرد مضادات.

هل قرر الأطباء إجراء عملية للثقب في القلب لابنك ..؟.

الطبيب ذكر أنه لو كان صغيراً في مرحلة الرضاعة لما احتاج إلى عملية جراحية، لكنّه الآن في العاشرة، ولابد من إجراء العملية.

وأخيراً، هذه قصتي مع الايدز. قصدتُ من خلالها توجيه رسالة مهمة إلى الآباء والامهات والبنات مفادها:

أولاً:عدم إجبار البنات على الزواج من أشخاص لا يعرفونهم. فوالدي هو سبب إصابتي!! .

ثانياً: لابد من التحري عن أخلاق الخاطب وتاريخه والبيئة التي نشأ فيها.

ثالثاً: بعد كل هذا لابد من إجراء الفحص الطبي قبل الزواج وقبل فوات الأوان.

رابعاً: التمرد على كل ما له علاقة بالعادات والتقاليد المتعلقة

بإجبار البنات على الزواج ممن لا يرغبن به.

خامساً: إعطاء البنت المعنية الحرية الكاملة بالموافقة من عدمها بعيداً عن التهديد والوعيد من الوالدين أو غيرهما.

فرموناتُ الشمِّ وأمية بن الأسكر

ثبت علمياً أن هناك علاقة وثيقة بين الشم والذاكرة، فرائحة معينة يمكن أن تذكرك بإنسان لم تره منذ سنين، كما ثبت أن لكل انسان رائحة خاصة به مثل البصمة والجينات الوراثية تماماً، ورائحة الإنسان تساعد على التجاذب أو التنافر مع الآخرين خلال ثوان بما يُسمى برابطة الرائحة. والمسؤول عن هذه الرائحة هي مادة كيماوية تخرج مع العرق تسمى فرمونات، ولكل إنسان مادته الخاصة به، وتفرز هذه المادة غُدد في الجلد اسمها «أبوكراين» وتتركز في جلد الوجه والصدر والإبط. وثبت أيضاً أن تخزّين هذه الرائحة في الذاكرة يزداد تبعاً لقرب الشخص وحنينه وحبه للآخر، كالأبن من أبيه او أمه. وسرعان ما يُخزّن الطفل بعد الولادة رائحة أمه، فيستطيع من خلالها تميّزها من غيرها بسرعة.

يلتقط هذه المادة جهاز خاص (VNO)، وهو عبارة عن قطعتين غشائيتين ملتصقتين بجهتي حاجز المنخرين، فيه نهايات عصبية تربطه مباشرة بمركز العواطف والذاكرة في الدماغ، تُعد الفرمونات من أقوى مؤثرات استدعاء الذاكرة والمزاج، وتزداد سرعة التأثر ودقة التذكر بازدياد الألفة والمودة والعاطفة.

وقد وردت لذاكرة الشم إشارات في القرآن الكريم، وبالذات

في سورة يوسف، قال تعالى: ﴿ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا ﴾ **(يوسف ٨)**، ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ ﴾ **(يوسف ١٣)**، ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴾ **(يوسف٨٤)**.

حبٌ منقطعُ النظير، عاطفةٌ أبويةٌ جياشةٌ، لا يُطيق فراق يوسف!، لذلك اختزان ذاكرة الشم في ذاكرة أبيه في قمتها، ولهذا، وبعد غياب يوسف لسنين طوال قال أبوه؛ كما جاء في القرآن الكريم: ﴿ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٣ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ٩٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴾ **(يوسف ٩٣-٩٥)**.

يقول ابن عباس رضي الله عنه: أنه: هاجت ريحٌ حال انفصال العير (قافلة الجمال) من القاهرة باتجاه الخليل في فلسطين، فحملت رائحة فرمونات يوسف الموجودة في عرقه الموجودة في قميصه الذي أرسله مع إخوته لأبيه، فوصلت أبيه فوراً، وبينهما بالعادة مسيرة ثمان ليالٍ، فقال أبوهم: (وهو لا يعلم عن العير والقميص شيئاً) مباشرة: ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ **(يوسف٩٤)**. (القرطبي ٩/ ٢٥٩).

والشيء بالشيء يذكر، كان رجل اسمه أميه بن الأسكر وكان من سادات قومه وكان له ابن يُسمى كلاب بن أمية بن الأسكر، هاجر كلاب بن أمية إلى المدينة في خلافة عمر رضي الله عنه فأقام بها مدة ثم لقي ذات يوم بعض الصحابة فسألهم أي الأعمال أفضل في الإسلام.

فقالوا: الجهاد، فذهب كلاب إلى عمر يريد الغزو، فأرسله عمر رضي الله عنه إلى جيش في العراق ضد الفرس فلما علم أبوه بذلك تعلق به وقال له: «لا تدع أباك وأمك الشيخين الضعيفين، ربياك صغيراً، حتى إذا احتاجا إليك تركتهما».

فقال: «أترككما لما هو خير لي»، ثم خرج غازياً بعد أن أرضى أباه، فأبطأ في الغزو وتأخر، وكان أبوه وأمه يجلسان يوماً في ظل نخل لهم في وادٍ وإذا حمامة تدعو فرخها الصغير وتلهو معه وتروح وتجيء، فرآها الشيخ فبكى وقال:

لمن شيخان قد نشدا كلابا ... كتاب الله لو قبل الكتابا

أناديه فيُعرض في إباءٍ ... فلا وأبي كلاب ما أصابا

تركتَ أباك مرعشة يداه ... وأمك ما تسيغ لها شرابا

فإنك قد تركت أباك أعمى ... على حزن ولا يرجو الإيابا

فإنك والتماس الأجر بعدي كباغي الماء يتبع السرابا

فلما رأته العجوز «أم كلاب» يبكي فبكت، ثم أصاب الشيخ ضعف في بصره، فبلغت مقالة أمية عمر، ولم يردد كلاباً، فأهتر أمية وخَلَّط جزعاً على ولده، فلما تأخر ولده كثيراً، أتى عمر في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وأنشد قائلاً :

أَعـاذِلَ قدْ عَذلتِ بغيـر قَدْر ولا تَدْرِينَ عـاذِلَ مـــا أُلاقـي

فـإمّـا كـنْتِ عـاذلـتـي فـرُدِّي كِـلابـاً إذْ تَـوجَّـــهَ للعِـراقِ

فلو فَلَقَ الفؤادَ حَماطُ وَجدٍ لـهَـمَّ سَـوادُ قـلـبي بـانفـلاقِ

سأستعدي على الفاروق ربـاً لـــه دَفعُ الحجيجِ إلى بُساقِ

ثم قال وجهاً لوجه: والله يا ابن الخطاب لئن لم ترد علي ولدي لأدعون عليك في عرفات، فبكى عمر وكتب رضي الله عنه طالباً رد ولده إليه، فلما قدم كلاب ودخل على عمر رضي الله عنه قال له: ما بلغ بِرُّك بأبيك؟ .

قال كلاب: «كنت أُفضله وأكفيه أمره، وكنت إن أردت أن أحلب له لبناً، أجيء إلى أغزر ناقة في أبله، فأريحها وأتركها حتى تستقر، ثم أغسل أخلافها -أي ضروعها - حتى تبرد ثم أحلب له في الإناء فأسقيه».

ثم جيء بأميةَ يتهادى وقد انحنى ظهرُه وضَعُفَ بصرُهُ. فقال له عمرُ: كيف أنت يا أبا كلاب؟.

قال: كما تراني يا أميرالمؤمنين، قال: هل لك من حاجة؟ قال: نعم. أشتهي أن أرى إبني كلاباً فأشمُّه شمَّة وأضمُّه ضمَّة قبل أن أموتَ. فبكى عمرُ ومن معه.

ثم أمر كلاباً أن يخرج ويحلب لأبيه ناقة كما كان يفعل سابقاً، ويبعث بلبنها إليه، فقام ففعل ذلك، ثم جاء وناول الإناء إلى عمر فأخذه رضي الله عنه وقال: اشرب يا أبا كلاب.

فلما تناول أمية الإناء ليشرب وقرّبه من فمه، وهو لا يعلم أن كلاباً قد عاد ويقف قريباً منه ولكن دون أن يراه، قال أميه: «والله يا أميرالمؤمنين إني لأشم رائحة يديّ كلاب»، فبكى عمر رضي الله عنه وقال: «هذا كلاب عندك وقد جئناك به»، فوثب إلى ابنه وهو يضمه ويعانقه وهو يبكي، فجعل عمر رضي الله عنه والحاضرون يبكون لبكائه.

ثم قال عمر: «يا بُني الزم أبويك فجاهد فيهما ما بقيا ثم اعتنِ بشأن نفسك بعدهما» فذهب كلاب و هو يقول:

لعمرك ما تركتُ أبا كلابٍ كبير السنِ مكتئباً مصابا

وأمّاً لا يزالُ لها حنينٌ تُنادي بعد رقدتها كلابا

لكسب المال أو طلب المعاليِ ولـكنّي رجوتُ به الثوابــا

الله عن الفاروق وصحبه، فقد كان رغم ما عُرف عنه من شدة في سبيل الله إلا أنه كان سرعان ما يبكي خوفاً من الله تبارك وتعالى. ورضي الله عن كلاب إذ ترك والديه وهما على هذه الحالة، ظنا منه أن وجوده بعيداً عنهما في مقارعة العدو أكثر أجراً وأدعى لرضاء الله تبارك وتعالى، وربما نسي توجيه الرسول ﷺ، فعن عبد اللهَّ بن عمرو بن العاص - رَضِيَ اللهُّ عَنْهُ - قال: أقبل رجل إلى نبي اللهَّ ﷺ فقال: أُبَايعك على الهِجْرَة والجهاد؛ أبتغي الأجر من اللهَّ تعالى. فقال: « فَهَلْ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟ قال: نَعَم؛ بَلْ كلاهما. قال: فتَبْتَغِي الأَجْرَ مِنَ اللهَّ تَعَالَى؟ قال: نَعَم. قال: فَارْجِعْ إِلى وَالِدَيْكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُما» (متفق عَلَيْهِ). وفي رِوَاية لهما: جاء رجل فاستأذنه في الجهاد فقال: «أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟ قال: نعم. قال: فَفِيهما فَجَاهِدْ» .

محدوديةُ الحواسِ،نعمةٌ أم نقمةٌ؟!

الحواس هي منافذ ُالعقل إلى العالم وقنواتُ الإدراكِ لهُ،ورغم أنها أكثر النظم تعقيداً، إلاَّ أن قدراتها محدودة، وبدونِها لا يَشعُرالإنسانُ بكيانِهِ بل بوجودِهِ مَعَ الآخريـــن. والإدراكُ هو نقلُ الواقِع إلى الدِّماغِ بواسطَةِ الحواسِّ ليتمكنَ الانسانُ مِـنْ معرفـةِ ماهيَّـةِ الأشـيـاءِ ومكنونِهـا والحُكم عليها، والله تبارك وتعالى أخبرنا بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ **(النحل٧٨)**.

وللحواسِّ عتباتٌ لا تستطيع أن تتعدّاها، مثلاً عتبة السمع لساعَةِ اليَـدِ هي سَـبْعَـةُ أمـتـار، وسُرْعَةُ الأمواجِ الصّوتِيَّةِ في الهواءِ (٣٤٠) متراً في الثانية، ونحن كبشر نسمعُ الموجات التي تَرَدّدُها بين (٢٠ - ٢٠٠٠٠) ذبذبة في الثانية فقط، لذلك لا نسمع الموجاتِ فوقَ الصّوتِيّةِ بخلافِ المخلوقـاتِ الأُخـرى. علماً أن الموجاتُ الصّوتِيَّةُ التي تفوقُ (٢٠,٠٠٠) ذبذبة في الثانية تتأثَّر بها البكتيريا فتتفجر.

والأذُنُ أم الحواس وهي مسـؤولـةٌ عــن السَّـمعِ و حفظ التـوازن، فمن يولدُ أصماً يعش أبكماً، والسمع هي الحاسـة الوحيدة التي لا تنام، والأذن هي أداة الاستدعاء مـن النوم، والله تبارك

وتعالى يقول: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾(الكهف١١). ورغم وجود(١٠٠,٠٠٠)خلية سمعية في القوقعة محفوظة داخل الجمجمة، إلاّ أنّ الإنسان يفقد طبيعيا(٤٠ ٪)منها عند سن (٦٥) فما فوق.

وعن أنس رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «...وأمّا الكافِرُ أو المُنافِقُ فيقولُ لا أدري، فيُقالُ: لا دريتَ ولا تليتَ ثُمَّ يُضْرَبُ بمِطرَقَةٍ مِن حديدٍ ضَربَةً بينَ أذُنيهِ فيَصيحُ صيحَةً يسمعُها من يَليهِ إلاّ الثّقلين» (رواه البخاري)، وفي رِوايَةٍ أُخرى «...ثُم يُقيِّضُ لهُ أعمى أصمُّ أبكم في يَدِهِ مِرزَبَّةٌ لو ضُرِبَ بها جبلٌ كان تُراباً فيَضرِبُهُ ضَربَةً فيصيرُ تُراباً ثُمَّ يُعيدُهُ اللهُ كما كانَ فيَضرِبُهُ ضَربَةً أخرى فيَصيحُ صيحَةً يَسمعُهُ كُلُّ شيءٍ إلا الثّقلين».

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «بينما النّبي ﷺ في حائطٍ لبَنِي النَّجّار،على بغلةٍ له ونحنُ معهُ ، إذ حادَتْ بهِ، فكادت تُلْقيهِ، وإذا أَقبُرٌ سِتَّة فقالَ: مَن يعرفُ أصحابَ هذهِ الأَقْبُرْ؟ فقالَ رجُلٌ: أنا، قال: فمتى مات هؤلاء؟ قال: ماتوا في الإشراكِ، فقال: إنَّ هذهِ الأمةَ تُبتلى في قبورها، فلولا أن لا تَدافنوا لدعوت اللهَ أن يُسمعكم من عذابِ القبرِ الذي أسمعُ منهُ...» (رواه مسلم). وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الموتى ليعذبون في قبورهم حتى إن البهائم لتسمع

أصواتهم» (رواه الطبراني) .

فهل تعلم أيها الإنسان أنك تعيش في بحر متلاطم من الأمواج الصوتية!! أنك لا تسمع منها إلا النزر اليسير...!، كيف بك لو تسمع مليارات الموجات الصوتية التي تملأ الفضاء؟!، الخلويات والإذاعات والفضائيات،!و هل تعلم أن المحمول والمذياع والتلفاز يلتقطها عنك..!!، ما حال البشر لو يسمعون عذاب مليارات الموتى في القبور..؟!، هل تعلم أن البهائم تسمعها عنهم!، لو نسمع كل شيء حولنا لقتلتنا الأمواج الصوتية والضوضاء، فما أعظم نعمة السمع !، ولكن الأعظم أننا لا نسمع كل شيء حولنا!! فسبحان من قال: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ **(الفرقان٢)** .

أمّا حاسة الإبصار فأمرها عجيب، فإنك تستطيعُ أن ترى نوراً على بعد (٤٥)كم في ليلة ظلماء صافية، ولا تستطيع أن ترى نقطة قطرها أقل من (٢ , ٠) / الملمتر، ورغم أنه يوجد في كل عين (١٣٢) مليون خلية مستقبلة للضوء، فإننا نرى جزءاً بسيطا من الطيف الكهرومغناطيسي فقط، نرى ما يقع بين (٣٨٠ – ٧٨٠) نانوميتر (البنفسجي والأحمر) ولا نبصر في الظلام الدامس بينما الحصان يمكنه ذلك..!!.

فعن جابر بن عبد الله قال: «قالَ رسولُ اللهِ: إذا سَمِعتُم

نُباحَ الكِلابِ ونَهيقَ الحُمُرِ بالليلِ فَتَعَوَّذوا بالله فإنَّهُنَّ يَرَيْنَ مالا تَرَوْن» (رواه أبو داوود). وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم أصوات الديكه فإنها رأت ملكاً فاسألوا الله وارغبوا إليه وإذا سمعتم نهاق الحمير فإنها رأت شيطاناً فاستعيذوا بالله من شر ما رأت» (صحيح ابن حبّان). فماذا لو كشف الله عنك غطاءك فأصبح بصرك اليوم حديداً، فرأيت مليارات الميكروبات التي تمور من حولك، ورأيت المليارات التي تستوطن جسدك، ورأيت مليارات الذرات من الهباء والأتربة في الهواء، ورأيت مليارات الجزيئات تتصارع في كأس الماء أمامك، ورأيت الإلكترونات في حركة دائبة تدور حول مراكزها.

ماذا لو رأيت مليارات المليارات من هذا وذاك ، لا شك أن حياتك ستكون مستحيلة!!،

ماذا لو فقدت بصرك كليًّا ولم تر شيئاً...؟، فكيف ستكون حياتك...؟؟

فنعمة الإبصار عظيمة، ولكن الأعظم محدوديتها، فسبحان القائل: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ **(النحل ٥٣)** وأما حاسة الشم فلابد أولاً من معرفة الحقائق التالية، فمثلاً، كل جانب من أعلى تجويف الأنف فيه (٤ , ٢) سم مربع لخلايا الشم، فيها ما مجموعه (١٠٠) مليون خلية حسية مستقبلة يخرج منها

حوالي بليون سوط دقيق جداً، تتجدد مستقبلات الشم كل شهرين مرة، وهي حساسة جداً لدرجة التقاط جزيء وحيد من الرائحة من بين (١٠) مليون جزيء من الهواء. علماً أنّ حاسة الشم تزيدُ من قدرة الإنسان على تذوق الطعام.

تتطور حاسة الشم عند الطفل بعد خمسين ساعة من الولادة، ويستطيع الطفل تمييز رائحة أمه تماماً، والشم أكثر حساسية من التذوق بعشرة آلاف مرة، (٥ ٪) من دماغ الإنسان مختص بالشم بينما في الكلاب (٣٣ ٪)، الشم مخبر صادق عن وجود تسرب في الغاز أو دخان ينذر بحريق، والشم يجعلك تتقارب أو تتنافر مع الآخرين خلال ثوان.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ المؤمِنَ إذا قُبِضَ أَتَتْهُ ملائكةُ الرّحمةِ بحريرَةٍ بيضاءَ، فيقولون: أُخرُجي إلى رَوْحِ الله فتخرجُ كأطيبِ ريحِ المسكِ، حتّى أنَّهُ ليُناوِلُهُ بعضُهُمْ بعضاً فَيَشُمّونَهُ... وأمّا الكافِر فيأتيه ملائِكَةَ العذابِ بِمَسَحٍ فيقولون أُخرجي إلى غضبِ الله فتخرُجُ كأنتنِ ريح جيفةٍ ..» (رواه ابن حبان في صحيحه)، وعن أبي هريرة رضي الله عنهُ قالَ: «إذا خَرَجَتْ روحُ المؤمِنِ تلقّاها ملكانِ يُصعدانِها..... ويقولُ أهلُ السماءِ: روحٌ طيّبَةٌ ، جاءت من قِبَلِ الأرضِ، صلّى اللهُ عليكِ وعلى جسدٍ كنتِ تَعمُرينَهُ،

فينطلـقُ بـهِ إلى ربـهِ، ثـمّ يقـولُ: انطلقوا بِهِ إلى آخرِ الأجلِ، قال: وإنَّ الكافرَ إذا خـَـرَجَـــتْ روحُهُ، ويقولُ أهلُ السماءِ: روحٌ خبيثةٌ جاءتْ مـن قِبَلِ الأرضِ، قال: فيُقالُ: انطلقوا بهِ إلى آخرِ الأجلِ. قالَ أبو هريرةَ: «فردَّ رسـولُ اللهِ رَيْطَـةً كانت عليـهِ على أنفِهِ هكذا». (رواه مسلم).

فتصور لو كانت مقدرة الشم معدومة عندك..؟ لامتلأ المطبـخ غازاً متسـربـاً!

ولاختنقت منـه وأنـت لا تشعر، ولاحترقت مع بيتك في وقت قياسي،!

وماذا لو كانت مقدرة الشم مفرطةً عندكَ ؟ !، لتكدرت حياتك من كثرة الروائح الرديئة، و ماذا لو قدر الله لك أن تشم رائحة روح الكافر! ! وهي كأنتن ريـح جيفةٍ في الأرض، فسبحان القائل ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ **(القمر٤٩)**.

وأما حاسة التذوق فهي تتكون من عشرة آلاف برعم للتذوق، و تنتشر هذه البراعم في تجويف الفم وعلى سطح اللسان، قطرالبرعم الواحد (١,٣) ملم وطوله(١,١٦) ملم يتكون كل برعم من (٤٠)خلية طلائية تسمى خلايا التذوق. و تضمر بعض براعم التذوق بعد سن (٤٥). والحالة النفسية للإنسان مرتبطة بالتذوق، فالفرح والبهجة تعطي الاطعمة والأشربة طعماً ألذ،

بينما الحزن والقلق يفقدها طعمها الطيب، فالتذوق سرٌّ من أسرار الخالق.!.

يقول العلماء إن أدنى تركيز يلزم لتذوق حلاوة السكر هو(٠,٠١)، ولتذوق ملوحة ملح الطعام هو (٠,٠١)، بينما لتذوق حموضة حامض الهيدروكلوريك المؤذي هو(٠,٠٠٠٩)، ولتذوق مرارة الكينين هو (٠,٠٠٠٠٠٠٨)، فسبحان الله الذي جعلنا نحس بكميات قليلة جداً جداً من المضر حتى ننتبه ولا نتأذى .

وللتذكير فإن الانفلونزا تفقدك تذوق الطعام مؤقتاً، فيصبح المشوي والتراب بطعم واحد.!

فتضيق ذرعاً لعدم الإحساس بالتذوق، فكيف بك إذا فقدت ذلك طوال حياتك...؟؟، وماذا لو كنت لا تميز بين حُلوٍ أو مُرٍّ..؟، وماذا لو كان طعم المالح والحامض واحداً في فمك...؟، ماذا لو فقدت حاسة التذوق كليًّا..؟ ، فيصبح كل شيء بلا طعم إطلاقاً...؟ ،لا شك أن الأمر يصعب تصوره....!، فالحمد لله على نعمة التذوق والتلذذ بالطعام، ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ ﴾ **(النحل ١٨)**.

وأمّا حاسة اللمس فعتبتها سقوط شعرة صغيرة على الخد من ارتفاع (١) سم، وتتكون الحاسة من الألم واللمس والحرارة و البرودة.

فماذا لو زادت حساسية اللمس؟، أي لمسة تسبب لك ألماً

شديداً، تصرخ من شدة الألم عندما يصافحك صديق.... تقفز مذعوراً إذا سقطت ريشة على رأسك.... وماذا لو لم تحس بالألم؟ ... فحياتك مهددة بالخطر،! تحترق أصابعك دون أن تحس، تُسحق قدمك حتى العظم وأنت لا تعلم، !تأكل الأورام جسمك دون أن تعلم بحاجتك للطبيب، فكما أن حاسة اللمس نعمةٌ كبرى، فَمَحدُودَيَّتُها نعمةٌ أعظم.

وأخيراً، نحن نعيش في عالم بلا حدود، نعيش في عالم مملوء بالهباء والموجات المتحركة، نعيش في بحر متلاطم بالأمواج الصوتية، نعيش في بحر متلاطم من الميكروبات التي لا نراها ! نعيش في بحر متلاطم من الأمواج الضوئية!!فماذا لو قُدر لنا أن نسمع كل الأمواج الصوتيه،! الخلويات.....الفضائيات..... الإذاعات.....؟ وماذا لو رأينا مليارات الميكروبات علينا ومن حولنا؟ كيف ستكون حياتنا يا ترى؟! فالحمد لله على الحواس وألف حمداً لله على محدوديتها!. !، ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴾ **(إبراهيم ٣٤).**

معجزاتٌ أم كرامات؟!

المعجزة لاتكون إلاّ لنبيٍ، فلا أحد بعد رسول الله ﷺ يدعي أن لديه معجزة إطلاقاً، والمعجزة لغةً هي مأخوذةٌ مِنَ الإعجازِ، أي إثباتُ عجز الغيْر، والمعجزة اصطلاحاً هي أمرٌ خارقٌ للعادةِ يُظهِرُهُ اللهُ على يد نَبِيٍّ تصديقاً لَهُ. وتُحدثُ تغييراً يَتَحَدّى القَوانينَ الطبيعيَّةَ التي ثبتتْ بالحسِّ والتجربةِ.

أما الكرامَةُ فتَحدُثُ للوليِّ دونما توقُّعٍ أو طلبٍ منه، ويحب الإخفاء ويكثر من الاستغفار، ويدعو الله أن يُقبض إليه إذا ظهر أمره وكُشف سره، وأحياناً يختلط أمرهم على العامة، فيخلطون بين الولي والمشعوذ، ولهذا قال أهل العلم: لو رأيتمْ الرّجُلَ يطيرُ في الهواءِ ويَمشي على الماءِ فلا تَغْتَرّوا بِهِ حتّى تنظُروا كيف وُقوفَهُ عِنْدَ الأوامِرِ والنّواهي، إنَّ للدِّين عِلْماً وعَمَلاً..هو الميزانُ الذي يُفَرِّقُ أولياءَ الرَّحْمنِ مِنْ أولياءِ الشَّيطانَ.

وهناك اصطلاحات شرعية لابد من التذكير بها، فمثلاً المعونة فهي تَظْهَرُ على يَدِ العَوامِ تَخليصاً لَهُمْ مِنْ شِدّةٍ، أما الإستدراج فيَظْهَرُ لفاسِقٍ خديعةً له ومكراً بِهِ، أما الإهانَةُ فتَظهَرُ على يَدِ الكذّابِ الذي يدَّعي النُّبُوَّةَ تكذيباً لهُ كما حصل لمدعي النبوة مُسَيْلِمَةَ الكذاب حين تَفَلَ في عَيْنِ أَعْوَرٍ ممن آمنوا له لتَبْرَأ، فَعَمِيَتْ الثّانِيَة. وتَفَلَ في بِئْرٍ بِهِ ماءٌ قليلٌ ليزيدَ فذهبَ الماءُ كلياً.

أما كرامات الصحابة، فحدث عنها ولاحرج ومنها ما ذكره شرحبيل بن مسلم الخولاني قال: تنبأ (ادعى النبوة) الأسود بن قيس العنسي باليمن، فأرسل إلى أبي مسلم فقال له: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، قال: فتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع، قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: فتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع، قال: فأمر بنار عظيمة فأُججت وطُرح فيها أبو مسلم فلم تضره، فقال له أهل مملكته: إن تركت هذا في بلادك أفسدها عليك. فأمره بالرحيل فقدم المدينة، وقد قُبض رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر. فقام إلى سارية من سواري المسجد يُصلي، فبصُر به عمر بن الخطاب، فقال: من أين الرجل؟ قال: من اليمن قال: فما فعل عدو الله بصاحبنا الذي حرقه بالنار فلم تضره؟ قال: ذاك عبد الله بن ثوب. قال عمر: نشدتك بالله عز وجل أأنت هو؟ قال: اللهم نعم. قال: فقبّل ما بين عينيه، ثم جاء به حتى أجلسه بينه وبين أبي بكر وقال: الحمد لله الذي لم يُمتني حتى أراني في أمة محمد ﷺ من فُعل به كما فُعل بإبراهيم خليل الرحمن، عليه السلام.

أما كرامة الصحابية الجليلة أم السائب التى رواها أنس بن مالك رضي الله عنه «حياة الصحابة» فهي من أعجب ما قرأت، ولا يملك الإنسان إلاّ أن يُردد من أعماقه﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ **(البقرة٢٠).**

كانـت أم السائـب عجـوزاً عميـاءَ، هاجـرت إلى رسـول الله ﷺ ومعهـا ابـن لهـا شـابٌ. وبعـد فـترة مـن هجرتهـا مـرض ابنهـا أيامـاً ثـم قُبـض. وجـاء النبـى ﷺ فغمّضـه، وأمـر بتجهيـزه للدفـن، وقـال ياأنـس، إئـتِ أمّـه فأعلمهـا، فلـما علمـت جـاءت تتحسـس حتـى جلست عند قدمـيّ إبنها، ثم أخذت بهـما، وقالت: اللهـمّ إنـى أسلمـتُ لـك طوعًـاً، وخالفـت الأوثـان زهـداً، وهاجـرتُ لـك رغبـةً، اللهـمّ لا تُشمـت بـى عَبَـدة الأوثـان، ولا تحُمّلنـى مـن هـذه المصيبـة مـا لا طاقـة لي بحملـه. قـال أنـس: فـوالله مـا انقـضى كلامُهـا حتـى حـرّك قدميـه، وألقـى الثـوب عـن وجهـه، فـما برحنـا حتـى أكلنـا وأكـل معنـا، وعـاش حتـى قَبـض الله رسولـه ﷺ، وحتـى ماتـت أمّـه. والكرامـات لـن تنتهـي حتـى يـرث الله الأرض ومن عليهـا، فكم مـن الأوليـاء الأخفياء البسطاء بـين المسلمين، الذيـن لا ذكر لهم في الأرض؛ لكنّهم معروفون بل مشهورون في السماء.

ومِدادَ كلماتهِ

أُنشئت منظمة «الجينوم البشري» عام (١٩٨٨)م في الولايات المتحدة، كان هدفها هو حل شفرة كامل الجينوم البشري «المادة الوراثية»، أما مشروع «الجينوم البشري» فهو مشروع بحثي بدأ العمل به رسمياً في عام (١٩٩٠)م، وقد كان من المخطط له أن يستغرق (١٥) عاماً، لكن التطورات التكنولوجية عجلت العمل به حتى أوشك على الانتهاء قبل موعدهِ المحدد لهُ بسنوات، فأعلنت نتائجه الأولية عام (٢٠٠٠)م، وأعلنت النتيجة النهائية للمشروع عام(٢٠٠٣)م.

وقد أدى ذلك لإجراء أبحاث في مجالات ذات أهداف بعيدة. وقد رُصدت له ميزانية ضخمة، وبدأ المشروع في الولايات المتحدة، وقد تمثلت الأهداف المعلنة للمشروع بالتعرف على الجينات التي يحتوي عليها ال «DNA» البشري، وعددها نحو (٢٢,٠٠٠)جين، وتحديد متوالية القواعد الكيميائية التي تكوّن ال «DNA» البشري وعـددها (٣,٣) مليارات زوج قواعد، ثم دراسة القضايا الأخلاقية، والقانونية، والاجتماعية التي قد تنتج عن المشروع.

وقد اتضحت لنا أمور كثيرة بفضل هذا المشروع، منها أن (٩٩,٩٪) من متتاليات الـ «DNA» متشابهة في جميع البشر، ولذلك فنحن ننتمي جميعاً للنوع الحي نفسه، «كلكم لآدم» لكن هذا الفرق الذي لا يزيد على (٠,١٪) قد يُفسّر استجاباتنا الفردية للأدوية

وقابليتنا للإصابة بالأمراض الخطيرة.

ومن بدهيات المعرفة الآن، أن وحدة البناء عند الإنسان هي الخلية، ويُذكر أن عددها في البالغ يتراوح ما بين ثمانين إلى مائة ترليون خلية، هذه الخلية فيها نواة، والنواة فيها المادة الوراثية، وهذا أُطلق عليه «الجينوم البشري»، وتعريفه البسيط هو كامل المادة الوراثية المكونة من (الحمض الريبي النووي منزوع الأكسجين) والذي يُعرف إختصارا بال «DNA»، يحتوي الجينوم البشري على ما بين (٢٠-٢٥) ألف جين (المورثات) موجودة في نواة الخلية ومرتبة على هيئة ثلاثة وعشرين زوجاً من الكروموسومات (أو الصبغيات).

وخلاصة هذا المشروع أنه تبين أن المادة الوراثية في الخلية الواحدة هي عبارة عن سُلم لولبي له (٣,٣) مليار درجه، فيها معلومات وكلمات نحتاج إلى خمسة آلآف سجل كبير لتفريغها، بحيث كل سجل يتكون من خمسمئة صفحة، هذا يعني أننا أمام مليونين ونصف المليون من الصفحات (٢,٥٠٠,٠٠٠) والصفحة الواحدة تحتوي على مائتي كلمة، وهذا يعني أننا أمام خمسمئة مليون كلمة في الخلية الواحدة، فإذا تذكرنا أن الجسم فيه مائة ترليون خلية فهذا يعني بالضرورة أن عدد الكلمات التي في جسمك هي محصلة ضرب خمسمئة مليون في مائة ترليون، وهذا يساوي رقماً خيالياً (خمسة وأمامها اثنان وعشرون صفراً) من الكلمات في جسمك وأنت لا تدري!.

ليس هذا فحسب، بل خمسة آلاف سجل، كل سجل فيه مئتان وخمسون ورقة، وسمك الورقة الواحدة هو على الأقل ربع ملمتر، هذا يعني أننا أمام كومة من السجلات ارتفاعها ثلاثمائة وعشرين متراً (٣٢٠)، يعني ارتفاع ناطحة السحاب «إمباير ستيت».

هذا كله كُشف من خلال هذا المشروع وفي فترة وجيزة، مما جعل بعضهم في الغرب يدّعون أنهم عرفوا لغة الخالق، وعمّا قريب سيُضاهونه خلقاً، ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴾ **(الإسراء ٤٣)**.

والسؤال الكبير هنا هو كم نحتاج من المِداد (الحبر) لكتابة هذا الكم الهائل من كلمات الله التي أودعها في جسمك؟ وفي أجسام المخلوقات الأخرى من بشر وشجر وحيوان؟!، لا شك أن ما سنحتاجه كثيرٌ بل هائلٌ.

وتفاعل المسلم إزاء مثل هذه الأمور مختلف تماماً عن الإنسان غير المؤمن، لما علّمه الله ورسوله، ولما يقرأه في القرآن الكريم وأحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام، فهو يعرف قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ **(البقرة ٢٥٥)**

ويُوقن أيضا بأنه: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ **(الإسراء٨٥)**.

بل يعرف أكثر من ذلك، لأنه قرأ قول الله تبارك وتعالى:

﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴾ **(الكهف ١٠٩)**.

فإذا علمنا أنَّ كل الماء الكثير الذي نشربه هو فقط (١٪) من مجموع ماء الأرض، وأن (٢٪) من ماء الأرض هو متجمد في القطبين، والباقي(٩٧٪)هو ماء المحيطات، إذا عرفنا هذا لا نملك إلاّ أن نقول سبحانك ربي ما أعظمك.

ومعدل عمق المحيطات هو أربع كليومترات، وأعمق نقطة أكتشفها العلماء في أقصى الشرق هي (مرينز ترنش)، وعمقها أحد عشر كيلومتراً، يعني لو أتينا جدلاً بقمة أفرست (ارتفاعها٨٨٠ ,٨متر) وغمرناها به لبقي فوقها أكثر من كيلومترين من الماء.

والله تبارك وتعالى يقول لنا بمنتهى الوضوح، لوأتينا بكل ماء البحر هذا ومثله معه كمدادٍ لكتابة كلمات الله ﴿ لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴾ **(الكهف١٠٩)**، ليس هذا فحسب، بل يقرأ المؤمن قوله تعالى في سورة لقمان:

﴿ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ **(لقمان٢٧)**.

ولو تصورنا معنى الأية الكريمة، وعلمنا أن خمسةً وثلاثين

مليار دونم من الأرض مغطاة بالغابات والأشجار، منها الصغير ومنها الشجر الأحمر الكبير الذي يصل طوله أحياناً إلى مائة متر، تحولت هذه جميعها إلى أقلام خشبية للكتابة؛ والبحرُ كمدادٍ له، لانتهى الماء ونفد ولو أتينا بسبعة أضعافه «وَالبَحـرُ يَمُـدّهُ مِن بَعـدِهِ سَبعَةُ أَبحُـرٍ مَّا نَفِـدَت كَلِمَـاتُ اللهِ إنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

إذن كل ما سبق من اكتشافات على عِظمها، لا تهُز المؤمن ولا تخرجه عن يقينه بل تزيده إيماناً وتعلقاً بدينه، خاصة إذا علم ما ورد لسان «جُوَيْرِيَةَ بنت الحارث»، أم المؤمنين رضي الله عنها؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً، حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى، وَهِيَ جَالِسَةٌ، فَقَالَ: «مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟» قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ»(رواه مسلم).

فمدادُ كلمات الله لا تُعد ولا تُحصى، وهي من أسراره في مخلوقاته، هذه الأسرار لها أول وليس لها آخر، وعقول البشر المحدودة ما كان لها ولا باستطاعتها استيعاب اللامحدود من علم الله، والإنسان المؤمن العاقل ليس له بعد الفهم الصحيح إلاّ العمل الجاد المخلص والتعلق بأوامر الله والاستسلام لها حتى يأتيه اليقين.

الاستحمامُ في أوروبا

لاشك بأن الطب قد تقدم تقدماً مذهلاً، وخاصةً العلاجي والتشخيصي، إلاّ أن الطب الوقائي كان أقلُ حظاً، رغم الحكمة القديمة الجديدة الصحيحة «درهمُ وقايةٍ خيرٌ من قِنطار علاج».

والطب الوقائي هو علم المحافظة على الفرد والمجتمع في أحسن حالاته الصحية، وذلك من خلال وقايته من الأمراض قبل وقوعها، ومنع انتشار العدوى إذا وقعت، وصيانة صحته بتحسين ظروف معيشته ومنع الحوادث وأسباب التوتر العصبي.

أمّا الصحة فهي حالة من اكتمال السلامة البدنية والعقلية والاجتماعية وليس مجرد غياب المرض الظاهر أو العجز، وتعتبر النظافة من أساسيّات الحياة السليمة، وقد أدرك الإنسان أهميّة النظافة في كافة مجالات حياته منذ القدم، والطب الوقائي يشمل النظافة الشخصية للإنسان ونظافة المنزل و البيئة المحيطة به والأرض ومكان العمل، وفي كافة مجالات الحياة العامة، التي يحتك بها الإنسان بشكل يومي ومستمرّ.

وتختلف معايير النظافة بين بلد وآخر، وشعب وآخر، باختلاف ثقافات تلك الشعوب ومعتقداتها، حثّ الدين الإسلامي على الالتزام بكافة معايير النظافة، ويعتبر ذلك من أساسيات السلوك الحضاري، ومن أهم مقومات العيش الكريم، ودعا

المسلمين للمحافظة على نظافتهم الشخصية، ونظافة المحيط الذي يعيشون في كنفه، واعتبر ذلك من أسس رسالته، ونظر إليها كعبادة يؤجر عليها المؤمن، حيث تجلّى ذلك بشكل واضح في قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ **(التوبة ١٠٨)**.

كما جعل من الطهارة والوضوء شرطاً أساسياً للصلاة حيث لا تقبل هذه الفريضة دون تحقيق هذا الشرط.

يقول الرسول الكريم: «تخللوا فإنه نظافة، و النظافة تدعو إلى الإيمان، و الإيمان مع صاحبه في الجنة» (السيوطي الجامع الصغير)، والنظافة الشخصية عند المسلم تتأتى من مجموعة من الممارسات اليومية التعبدية، فمثلاً؛ الوضوء الذي نمارسه يومياً مراراً هو عبارة عن غسل المناطق المكشوفة من جسم الإنسان، والتي هي أكثر عُرضة للتلوث بذرات الهباء المحملة بالجراثيم المتعلقة بالهواء، وهناك عشرات الأحاديث الصحيحة التي تحث على الإكثار من الوضوء، طلباً للمزيد من الأجر والثواب، ومنها قوله ﷺ: « إنَّ أُمّتي يُدعَونَ يومَ القيامةِ غُرّاً مُحَجّلين من آثارِ الوضُوء»(رواه البخاري). وعن أنس ابن مالك قال: «كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة»(رواه البخاري).

أمّا نظافة الجسد فهي غاية في الأهمية لما على الجلد من جراثيم مختلفة، وهي في تكاثر مستمر بسبب ملائمة البيئة لنموها، وقد

ذكر العلماء بأن على جلد الإنسان العادي ما بين (٢٠) إلى (١٠٠) مليار جرثومة، وحتى لاتؤذي صاحبها أو المسلمين في مساجدهم وتجمعاتهم، سن لنا رسولنا الكريم سبعة عشر غُسلاً، أبرزها غسلا الجمعة والجنابة، حيث قال: «غُسل يوم الجمعة واجبٌ على كل محتلم»(رواه البخاري) وقال أيضاً: « ثلاث هن على كل مسلم يوم الجمعة: الغُسل والسواكُ ويمس طيباً إن وجد» (رواه أحمد).

ومن مكملات النظافة الشخصية نظافة الفم حيث قال ﷺ « لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلاةٍ» (متفق عليه)، وكذلك ما اصطلح عليه بسنن الفطرة، حيث يقول ﷺ: «خَمْسٌ مِنْ الْفِطْرَةِ: الْخِتَانُ، وَالاسْتِحْدَادُ، وَنَتْفُ الإِبْطِ، وَتَقْلِيمُ الأَظْفَارِ، وَقَصُّ الشَّارِبِ»(متفق عليه).

فالتعاليم والأوامر الإسلامية واضحةً كل الوضوح في موضوع النظافة منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، بينما كانت أوروبا تغط في سبات عميق، وتعتبر النظافة وخاصة النظافة الشخصية منها أداة كفر وتجريم وخروج عن المألوف.

وحكايات النظافة الشخصية في أوروبا لا تكاد تُصدق لغرابتها، خاصة عندما نقرأها نحن في القرن الواحد والعشرين فهل تعلم أن الاستحمام في أوروبا كان يعدُ كفراً، والأوروبيون كانوا كريهي الرائحة بشكل لا يُطاق من شدة القذارة!.

هذا ليس تجنياً عليهم، فهم أنفسهم، وفي كُتبهم يقولون ذلك، حيث وصف مبعوث روسيا القيصرية ملك فرنسا لويس الرابع عشر «أنّ رائحتهُ أقذر من رائحة الحيوان البري»، وكانت إحدى جواريه تُدعى «دي مونتيسبام» تنقعُ نفسها في حوضٍ من العطر؛ حتى لا تشمُ رائحة الملك، الروس أنفسهم وصفهم الرحالة أحمد بن فضلان أنهم «أقذر خلق الله، لا يستنجون من بولٍ ولا غائطٍ»وهذا لا زال قائماً عند غير المسلمين إلى يومنا هذا .

ويذكرالكاتب الأسباني «ساندور ماراي» في مذكراته بأن الملكة «ايزابيلا الأولى» التي قتلت المسلمين في الأندلس لم تستحم في حياتها إلا مرتين، وقامت بتدمير الحمامات الأندلسية.

أمّا الملك فيليب الثاني الأسباني فقد منع الاستحمام مطلقاً في بلاده، وابنته «إيزابيل الثانية» أقسمت أن لا تقوم بتغيير ملابسها الداخلية حتي الانتهاء من حصار احدي المدن، ولسوء حضها استمرالحصار ثلاث سنوات؛ وماتت بسبب ذلك.

هذا عن الملوك، والطبقة الراقية المترفة، ناهيك عن العامة. والشيء بالشيء يُذكر، حيث ربطت علاقة صداقة بين أحد السلاطين العثمانيين بأحد ملوك فرنسا، وقد تناهى إلى مسامع السلطان بأن صديقه الملك مريض، فأرسل إليه طبيباً مسلماً من تركيا لمعالجته، وقد دوّن هذا الطبيب ما حصل معه في هذه المهمة التي أوكلت إليه،

يقول: عندما دخلت القصر شممت رائحة كريهة، وكلما اقتربت من غرفة الملك ازدادت الرائحة حدة وتركيزاً.

دلفت الغرفة وعاينت الملك، فوجدته بأمس الحاجة الى الاستحمام، فطلبت ممن حولي تحضير المستلزمات التي أحتاجها لذلك، وبعد أن قمنا بما يلزم، وأزلنا كميات من الأوساخ المتراكمة مع خلايا الجلد الميتة عنه، أعدناه الى أريكة نظيفة ومريحة، فتمدد عليها وتنفس بعمق، وكأنه وجد الأكسجين لأول مرة.!

سألني الملك ما هذا الذي عملته لي؟!؛ فإنني أشعر براحة فريدة، ما سبق لي أن أحسست بمثلها، فقلت هذا استحمام!، ومن شدة إعجابه به، استدعى كبير الكتبة مع سجل القرارات الملكية وأمر بالفرمان«قرار التالي» يُعمل من الآن فصاعداً استحمام للملك مرة كل عام!.

هذه العطور الفرنسية التي اشتهرت بها باريس تم اختراعها أصلاً حتي تطغي علي الرائحة النتنة، وبسبب هذه القذارة كانت تتفشي فيهم الأمراض، حيث كانت أكبر المدن الأوروبية كـ«باريس» و «لندن» مثلاً يصل تعداد سكانها (٣٠) أو (٤٠)الفاً باقصى التقديرات بينما كانت المدن الإسلامية تتعدى حاجز المليون. وكان الهنود الحمر يضعون الورود في أنوفهم حين لقائهم بالغزاة الأوروبيين بسبب رائحتهم التي لا تطاق.

يقول المؤرخ الفرنسي«دريبار»: «نحن الأوروبيون مدينون للعرب (يقصد المسلمين) بالحصول على أسباب الرفاه في حياتنا العامة، فالمسلمون علّمونا كيف نحافظ على نظافة أجسادنا. إنهم كانوا عكس الأوروبيين الذين لا يغيرون ثيابهم إلا بعد أن تتسخ، وتفوح منها روائح كريهة، فقد بدأنا نقلدهم في خلع ثيابنا وغسلها.

كان المسلمون يلبسون الملابس النظيفة الزاهية حتى أن بعضهم كان يزينها بالأحجار الكريمة كالزمرد والياقوت والمرجان. وعُرف عن قرطبة أنها كانت تزخر بحماماتها الثلاثمئة في حين كانت كنائس أوروبا تنظر الى الإستحمام كأداة كفر وخطيئة».

وقد أجرت حديثاً كلية الصحة والطب الاستوائي في لندن دراسات كثيرة متعلقة بالنظافة الشخصية، منها ما يتعلق بغسل اليدين بعد قضاء الحاجة، فوضعوا كمرات في الحمامات العامة في لندن، لإحصاء الذين يغسلون أيديهم بالماء؛ فوجدوا أن (٣٢٪)من الإناث يغسلن أيديهن بالماء بعد قضاء الحاجة، و(٢١٪) من الرجال يفعلون ذلك.

فإذا علمت أن الناس في الغرب عامة يستعملون الورق الخاص للتخلص من بقايا البراز، وأن التجارب العلمية المخبرية أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك بأن جراثيم البراز تخترق عدة طبقات من هذا الورق، لتنفذ إلى الأيدي فتتلوث بما هبّ ودبّ من الجراثيم

«وأنا شخصياً ممن عملوا هذه التجارب في بريطانيا نفسها».

إذاً معظم الأيدي ملوثة، وهذا له تأثير مباشر على تلوث الطعام والشراب ونقل الجراثيم بين الناس، ولهذا فإن السلطات الصحية لاتألو جهداً في إقناع الناس لغسل أيديهم مراراً وتكراراً، حتى أنهم جعلوا منذ عام (٢٠٠٨)م يوماً عالمياً في(١٥)تشرين الأول من كل عام لتذكير الناس بشكل عام بغسل اليدين بالصابون، اسموه اليوم العالمي لغسل اليدين، حتى أن منظمة الصحة العالمية تأمل بانخفاض وفيات الأطفال إلى النصف بسبب ذلك.

ونظافة الجسم بشكل عام، واليدين بشكل خاص، هي عبادةٌ عندنا نتقرب بها إلى الله تبارك وتعالى، فهي جزء أصيل من تعاليم ديننا الحنيف، فقد سن لنا رسول الله سبعة عشر غُسلاً، أبرزها غُسل الجمعة وغُسل الجنابة، أما نظافة اليدين فهما أول شيءٍ يُغسل بعد قضاء الحاجة ولا يتم الوضوء بدون ذلك، وغسل اليدين قبل الطعام وبعده سنة نتبعها روتينياً، بعيداً عن تعليمات منظمة الصحة العالمية، والحمد لله على نعمة الإسلام العظيم.

الإعجاز النبوي في الوضوء

كلمة وُضُوء في اللغة، أصلها من الوضَاءة وهي النظافة، وشرعاً هي الطهارة المخصوصة التي يُرفع بها الحدث الأصغر، والوضوء هو امتياز إسلامي لا يقوم به إلاّ مسلم، وهو واجبٌ للدخول بالصلاة، لأنه ما لايتم الواجب إلاّ به فهو واجبٌ.

والوضوء فيه نواحٍ إعجازية محسوسة عجيبة، أمّا غير المحسوسة فلا يعرف بعضها إلاّ العالِمون « أهل الاختصاص»، وهنا سأُلقي الضوء على بعض الأمور الإعجازية الظاهرة، فالوضوء سلاح عام للمؤمن، فهو سلاحٌ مضادٌ للجراثيم، وسلاحٌ مضادٌ للشيطان وسلاحٌ مضادٌ للتوتر والخمول، وسلاحٌ لجمعِ الأجر والثواب وسلاحٌ متعدد الأغراض.

الوضوء سلاحٌ طاردٌ للجراثيم:

الجراثيم مخلوقات صغيرة لاتُرى بالعين المجردة، مبثوثة في كل مكان وبأعداد هائلة، يتعذر على البشر إحصاؤها؛ فلا يعلم عددها إلاّ الذي خلقها، فهي عالم بل عوالم، خلقها الله لتقوم بوظائف حيوية للإنسان، ولكنّ أكثر الناس لايعلمون، وعلى جلد الإنسان وفي زوره وأمعائه ما يعجز الوصف عن تبيانه لكثرتها عدداً ونوعاً، هذه الخلايا الجرثومية لا تتوقف عن الانقسام والتكاثر ما دامت تجد طعاماً وجواً مناسباً، وهل هناك أنسب لها من جسم

الإنسان وحرارته؟!، لذلك هي في تكاثر مستمر، حتى قال أهل الإختصاص أن على جسم الإنسان ما بين (٢٠) الى (١٠٠) مليار جرثومة، أكثرها على مناطق الجسم المكشوفة، أما ما في أمعائه فهو أكثر بكثير!!.

وإذا دققنا النظر قليلاً وجدنا أن الوضوء هو غسل المناطق المكشوفة من جسم الإنسان؛ لأنها الأكثرعرضة للهواء وما يحمل من جراثيم، فإذا بدأ الوضوء بعد الاستنجاء فإنه يبدأ بغسل اليدين، وهما الأكثر حركة في التقاط الأشياء، وبالتالي الأكثر تلوثا، فلا يعقلُ أن لا نبدأ إلاّ بهما، وقد تعلّمنا من الرسول الكريم كيفية وأهمية الاهتمام بنظافتهما، حيث قال «إِذَا بَالَ أَحَدُكُمْ فَلا يَأْخُذَنَّ ذَكَرَهُ بِيَمِينِهِ وَلا يَسْتَنْجِي بِيَمِينِهِ..»(رواه البخاري). «وعَنْ حَفْصَه زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ وَسَلَّمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَجْعَلُ يَمِينَه لِطَعَامِهِ وَشَرَابِهِ وَثِيَابِهِ وَيَجْعَلُ شِمَالَهُ لِمَا سِوَى ذَلِكَ» (رواه أبو داود) وقال ايضاً: «بَرَكَةُ الطَّعَامِ الْوُضُوءُ قَبْلَهُ وَالْوُضُوءُ بَعْدَه» (رواه ابو داوود)، هذا الغسل المستمر مع كل وضوء لاشك أنه يطرد الجراثيم ويخفف عددها فيقل ضررها، ثم تتكاثر من جديد حتى يأتي وقت الوضوء اللاحق وهكذا دواليك، والمحصلة أن الذي يتوضأ يحمل جراثيم أقل على يديه من غيره.

فإذا ما أتينا إلى الخطوة الثانية في الوضوء وهي المضمضة، فإن

ماءها يزيل أعداداً هائلة من جراثيم الفم الطبيعية، التي إن بقيت فإنها تتغذى على بقايا الطعام المترسب على الأسنان وبينها، وتحولها الى أحماض ومواد مؤذية للفم بشكل عام وللأسنان بشكل خاص، ناهيك عن الرائحة الكريهة، وتجنباً لذلك أمرنا رسول الله ﷺ باستعمال السواك فقال: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة» (متفق عليه)وقال أيضاً : «حبذا المتخللون من أمتي، قالوا: وما المتخللون يا رسول الله؟ قال: المتخللون في الوضوء، والمتخللون في الطعام ... إنه ليس شيءٌ أشد على الملكين من أن يريا بين أسنان صاحبهما طعاما وهو قائم يصلي» (رواه أحمد).

وأمّا الأنف فهو مسكون كالفم بجراثيم مختلفة، علاوة على أنه ممر للهواء أثناء عملية التنفس ومفلتر له، ولذلك تأتي عملية الاستنشاق ثم الاستنثار منظفة له من تراكم الجراثيم، وهكذا عملية الوضوء تخفف من هذه الجراثيم، وقبل أن تكتشف البشرية الجراثيم قال لنا رسولنا الكريم «إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ مَنَامِهِ فَلْيَسْتَنْثِرْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَبِيتُ عَلَى خَيَاشِيمِهِ» (متفق عليه) وقال أيضاً: «ذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَنْشِقْ بِمَنْخِرَيْهِ مِنْ الْمَاءِ ثُمَّ لِيَنْثُر» (رواه أحمد)، كما أُمرنا بإسباغ الوضوء حيث قال: «أَسْبِغ الْوُضُوءَ وَخَلِّلْ بَيْنَ الأَصَابِعِ وَبَالِغْ فِي الاسْتِنْشَاقِ إِلا أَنْ تَكُونَ صَائِمًا» (رواه أبو داود).

أما غسل باقي الأعضاء في الوضوء، فقد اوضح لنا ذلك

رسولنا الكريم في الحديث الذي رواه مسلم حيث قال: «مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ يُقَرِّبُ وَضُوءَهُ فَيَتَمَضْمَضُ وَيَسْتَنْشِقُ فَيَنْتَثِرُ إِلا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ وَفِيهِ وَخَيَاشِيمِهِ، ثُمَّ إِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ إِلا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ إِلا خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَمْسَحُ رَأْسَهُ إِلا خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ إِلا خَرَّتْ خَطَايَا رِجْلَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ». فالوضوء طارد للجراثيم ومزيل لمعظمها.

الوضوء سلاح مضاد للشيطان:

فهو يُطفىء الغضب، ويُبعد الشيطان، ويحمي من السوء، وأثناء موجة الغضب تزداد المواد المخثِّرة للدم وربما تؤدي الى جلطة خاصة عند مرضى القلب، حيث تغلق الكرة المتجلطة بعض شرايين القلب، وتؤدي الى الذبحة الصدرية أو إنفجار شريان ما في الدماغ، وما يترتب عليه، خاصة عند المدخنين وشاربي الخمر، ومن يعانون من ضغط الدم وارتفاع الكولسترول، إذن الغضب يؤذي ويعاقب صاحبه أكثر من غيره... !، وهنا لابد أن نتذكر الحديث الشريف: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ» (رواه البخاري). روي أن رجلاً قال للنبي ﷺ أوصني، قال: لا تغضب. فردد مراراً، قال: لا تغضب (رواه البخاري) .

وإطفاء الغضب، وطرد الشيطان، والبعد عن السوء، كل ذلك عالجه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتوجيهات يظهر ألقها يوماً عن يوم، فعنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلانِ عِنْدَ النَّبِيِّ حَتَّى عُرِفَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِ أَحَدِهِمَا فَقَالَ: النَّبِيُّ «إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ غَضَبُهُ أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم» (رواه الترمذي)، وقَالَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: «وَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ» (رواه أحمد). كما قَالَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلّا فَلْيَضْطَجِعْ» (رواه أبو داود وأحمد)، والعلاج الرئيسي جاء من خلال الوضوء، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الْغَضَبَ مِنْ الشَّيْطَانِ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنْ النَّارِ وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ» (رواه أبو داود وأحمد).

ومن الجدير بالذكر أن كل ما جاء من علاج للغضب على لسان رسولنا الكريم ﷺ ظهر عملياً في كتاب الدكتور (شامرا) (الغضب المكلف) وكتاب الدكتور «دانيال قولمان»(لجم العواطف).

الوضوء سلاح مضاد للتوتر والخمول:

فهو منشط لنهايات الأعصاب، ومنشط للشعيرات الدموية، ومدلك للعضلات، وباعث على الطمأنينة والراحة، فقد أثبت علم «الرفلكسلوجي» (Refloxlogy) أن النهايات العصبية تتركز في اليدين والقدمين وصيوان الأذن، فكل قدم يحوي

ثمانية آلاف نهاية عصبية، وأن معظم المشكلات الصحية مرتبطة بالتوترالذي يؤدي إلى انقباضات عضلية وبالتالي ضعف بالتروية الدموية ونقص بالأكسجين وضعف بالمناعة، ويأتي هنا التدليك لتحسين فاعلية الأعصاب الذي يؤدي إلى الاسترخاء العضلي، ومزيد من التروية، ومـزيد من الغـذاء والأكسجين والراحة.

وهذا ما شهد به «إسكندر» وهوعجوز في العقد السابع من عمره، ماليزي من أصل صيني لأبوين غير مسلمين، شرح الله صدره للإسلام، فأصبح ملتزماً وسمى نفسه «اسكندر»، يعمل كخبير يداوي بطريقة تحفيز النهايـات العصبيـة للأيدي والأرجل الرائجة في جنوب شرق آسيا.

يقول «اسكندر»: بحكم الخبرة والاختصاص لقد لاحظت بأن وضوء المسلم كفيل بعمل تدليك يومي للأيدي والأرجل والأذنين – أهم المناطق التي يرتكز عليها فن التدليك بسبب تجمع النهايات العصبية فيها – مما يؤدي إلى عمل صيانة يومية روتينية ومتكررة لأجهزة الجسم المختلفة طيلة حياة المسلم، فالحمد لله على نعمة الإسلام العظيم.

الوضوء سلاح لجمع الأجر والثواب:

الوضوء ضروري للدخول في الصلاة ولقراءة القرآن وحفظه، فهو جالب للبركة ومحفز لعمل الخير، يقول ﷺ: «من أحب أن يُكثر الله خير بيتـــه فليتوضـــأ إذا حضـرغداؤه وإذا رفع» (رواه ابن ماجة والبيهقي). ويقول أيضاً لأنس بن مالك: «يا بُني إن استطعتَ ألاّ تزالَ على الطهارةِ فافعل، فإنَّه من أتاهُ الموتُ وهو على الوضوء أعطي الشهادة» (رواه الترمذي).

الوضوء سلاح متعدد الأغراض:

الوضوء سلاح متعدد الأغراض ويعمل على كل الجبهـات، وهو غيـــر مكـــلـف، ومستطاع من الجميـع، ولا يحتاج إلى مؤهل علمي، ويتميـــز بالـديمومة، ويمتاز بالتكرار، ولابـد منه لما هو أهـم، وتكـراره مـأجـور، وهومزيل للذنوب والخطايـا، وعلامة فارقـة للمسلـم يوم القيامة، كما قال رسولنا الكريم: «إنَّ أُمّتـي يُدعَـونَ يـومَ القيامـةِ غُـرّاً مُحَجّليـن مـن آثـارِ الوضُـوء فمن استطاع منكم أن يطيـل غرتـــه فليفعل» (رواه البخاري).

جزى الله نبينا الكريم محمد ﷺ خير ما جزى به نبياً عن قومه، فهو الذي أنار لنا طريق الرشد ودلنا على الخير.

استنباتُ التكنولوجيا أم استيرادُها ؟

إن التبعية التكنولوجية للآخرين لن تُساعد أبداً في إيجاد تكنولوجيا محلية، ولن تُقلص الفجوة بين الدول المتقدمة والدول النامية، بل على العكس من ذلك؛ فهي تعمل على تعطيل الجهد الذاتي للبلد التابع، هذا الجهد الذي إذا ما أمكن تنميته وتطويره فإنه يصبح قادراً على الإبداع في المجالات التكنولوجية المختلفة، خاصةً وأن الحاجة أم الاختراع، والاختراع في حقيقته ليس إلّا تطبيق العلم ليحوله إلى أدوات ملموسة، وطرق عمل لتسيير هذه الأدوات، وهذا بمجمله ما يُطلق عليه تكنولوجيا.

ورغم التطور المذهل الذي أحدثته التكنولوجيا في وسائل الاتصال، وإمكانية الإطلاع المباشر وغير المباشر على ما أنتجته الشعوب، وهوالذي ساعد على تقريب المسافات والأزمنة لدرجة لم تعد تسمح بإمكانية التقوقع لأي شعب، كان ضمن حدود مغلقة صناعياً وطبيعياً، رغم ذلك كله إلّا أن التقدم العلمي والتكنولوجي الحالي يتركز بصفة رئيسية في حوزة دول وشعوب امتلكت القرار السياسي، والإمكانات المادية له، بعد معاناة كبيرة منذ مدة طويلة.

والتعاون الدولي الحقيقي الذي تعتقد به الدول النامية، والآمال والطموحات التي تتسلح بها هذه الدول، يفترض حسن النية وسيادة العلاقات الإنسانية الآخذة بيد الضعفاء للنهوض بهم؛

إنما هو سرابٌ لا يتعدى أمنيات الضعيف، فما حك جلدك مثل ظفرك.

لذا، أصبح تكوين قاعدة تكنولوجية وطنية من المطالب المقدسة التي لا بد منها للنهوض؛ خاصة وأنّ لدينا شبكةً من العلماء والباحثين، تُشكلُ طاقة عقلية وعلمية لا يُستهان بها، وهي موزعةٌ على معظم الاختصاصات، ولكنّهم بحاجة إلى التحفيز والربط والتوجيه وتهيئة المناخ الملائم، والمراكز المناسبة لتشغيلهم وتجميع طاقاتهم وإنتاجهم والاستفادة منها.

إن التغيير السريع الذي يواكب تطورالأشياء يجعل من كلمة التكنولوجيا مصطلحاً مطاطياً، يصعبُ تحديدُ مضمونه بدقة، فالبداية تكون بسيطة محددة المعالم ثم تتطور شيئاً فشيئاً حتى يُصبح شكلها الحاضرعلى درجة عالية من التعقيد، تصعبُ معها إمكانية حصر الشيء وتحديد أبعاده، وهذا ما ينطبق تماماً على التكنولوجيا.

ومع أنّ هناك أكثر من تعريف للتكنولوجيا مثل: أنها مجموعة المعارف والخبرات والمهارات اللازمة لتصنيع منتجٍ أو منتجاتٍ معينة، وإنشاءُ المشروعِ الملائمِ لإنتاجها، أو هي الوسائل التي صنعها أو أوجدها وسخرها لخدمته، إلّا أنّ تعريف التكنولوجيا الذي نجدهُ أقرب للحقيقة والواقع هو: أنها العملية الاجتماعية الهادفة إلى استخدام المعرفة العلمية في تطوير الإنتاج، وعليه فإننا نعتقد بأن

اصطلاح نقل التكنولوجيا غير دقيق أصلًا، لأن التكنولوجيا نسق اجتماعي كامل، مرتبطٌ عضوياً بأسلوب الإنتاج السائد في المجتمع، والذي يمكن نقله حقيقة هومنتجات التكنولوجيا أو مخرجاتها كالآلات والأشخاص والمعارف، أمّا التكنولوجيا فإنها تُستنبت استنابتاً، لتتعاظم وتتجذر مع الزمن بشكل متكامل، بحيث تتراكم المعرفة والخبرة والبحث الموجه لحاجات البلاد، ويتولد الكيان القومي القادرعلى استيعاب العلم وحُسن استغلاله، ويصبحُ الفردُ والمجتمعُ مسكوناً بهمّ الإنتاج والتقدم الوطني، ولن يتم ذلك إلّا إذا وجهت الدول النامية عملية التثقيف والبحث العلمي لشعوبها بطريقة تجعلها تصب في مجرى التنمية الشاملة.

رحم الله الملك العادل، ليث الإسلام نورالدين زنكي، حيث كان سبّاقاً في هذا الفهم الدقيق، فقبل أكثر من ثمانمئة عام جاءه شابٌ من بلاد الروم، وأعلن إسلامه، وطلب البقاء في أرض المسلمين، فقال له نور الدين: ما مهنتك ؟، قال الشابُ : أعمل بالطب وعلاج الجرحى، قال نور الدين: هل تقبل أن تُعالج جرحى جيشنا؟، قال: هذا والله ما أتيت من أجله يا سيدي، فإني أُريد أنّ أُكفّرعن ذنوبي وعملي بجَيش الكفار.

قال له: يا بُني إنّ الإسلام يجبُّ ما قبله، والتوبةُ تجبُّ ما قبلها، قال نور الدين: من أين تأتي بما تحتاج من أدوية ومواد العلاج؟ قال

له: لا توجد إلّا في بلاد الروم يا سيدي، قال نورالدين: والله لا نرضى أن يكون علاج جرحانا من أرض عدونا، قال له: خُذ مجموعةً من الجُند في غير لباس الجُند، واذهب إلى بلاد الروم وأتِ لنا بمجموعة من الأعشاب والمواد لنصنع مثلها هنا في أرض الإسلام.

ذهب الشابُ وعاد بعد مدةٍ وأحضر معه ماطُلب منه قائده البطل المجاهد، فأعطاه نور الدين بعضَ القطع الذهبيةِ وقطعةٌ من الأرضٍ وعدداً من المساعدين وقال له: إزرع هنا كل الأعشاب التي أحضرتَ معكَ، فإذا استوت فأتنا بها واترك قطعةً من الأرضِ وازرع لنفسك بها ما تقتات به.

فعل الشاب، وأحضر بعد مدةٍ ما زرع من أعشاب طبية فأعطاه نور الدين مكاناً ليقوم بتصنيع الأدوية، وأمر له بجلب المواد التي يُريدها من بلاد الإسلام بدلًا من الحاجة إلى ما عند عدونا، وأمر نور الدين بمجموعةٍ من الشبابِ أن يتعلموا على يد هذا الطبيب، حتى إذا حدث له مكروهٌ يكون هناك البديل، ولا يحتاج الجيش إلى مددٍ من غير أبنائه.

وبعد فترةٍ أتى الشابُ لنور الدين وقال له: سيدي القائد، إني قد علّمت الشبابَ مهنتي، ولن يكون هناك حاجةٌ كبيرةٌ لي بعد اليوم، فأذن لي ان أحمل سلاحي وأحاربَ عدو الله كما حاربتكم من قبلُ، فإني أحبُ أن ألقى الله شهيداً .

قال له نور الدين: فاكتب وصيتكَ واشترِ لك سلاحاً من حُر مالك، فلنّ أُعطيك سلاحاً، فتعجب الشابُ، وقال: سمعاً وطاعة، وقال له نور الدين مستدركاً: فاكتب وصيتك فإن لك أهلاً ومالاً ففعل، ودخل الشابُ في جيش المسلمين وأبلى بلاءً حسناً، حتى أن جنود الرومِ كانوا يفرون من أمامه ويقولون شيطانٌ شيطانٌ .. إن الجنَّ يحارب مع جيش المسلمين من شدة بطشه على العدو.

وبعد أن انجلت المعركةُ بحث نور الدين عن الشاب فلم يجدهُ وسط الأحياءِ ولا الجرحى، فذهب بنفسه بين الشهداء يبحثُ عنه، فاحتضنه نور الدين وبكى بكاءً شديداً، حتى علا نحيبهُ، وبينما يحتضنهُ نور الدين وجد رقعةً في جيب صدره، فأخرجها فإذا مكتوبٌ بها: سيدي، أُوصي بشطر مالي لأهلي والآخرُ يُجهزُ به جندٌ، صدقةً لي بعد مماتي.

سيدي نور الدين: لقد فهمتُ ما كنتَ تطلبه مني، أنت أعطيتني الأرض حتى يأكل الجندي المسلم من عمل يده، ورفضتَ أن تعُطيني سلاحاً حتى يكون أولُ سلاحٍ من حُر مالي، وأتيت لي بالعُشب والعقار من بلاد الإسلام، فكأنك تقول لي بما فعلت: إن المسلمين لن تُرفع لهم رايةٌ إلّا إذا كان طعامهم من عمل أيديهم، ودواؤهم وسلاحهم من صُنعهم، فجزاك الله عني خيراً، واسأل الله العلّي العظيم أن تكون رفيقي في الجنة.

انظر بربك ماذا يفعل الإسلام بالنفس البشرية، عندما يمتزج حقاً بكل جزئية من الجسد والروح، ما أرقاه وهو ينساب في الجوارح فيبعثُ السكينة والسلام في أعماق النفس الصاخبة، ليشعر فجأة وكأنه طائرٌ محلقٌ خفيف، مع أنه قبل ثوانٍ كانت الجبال كأنها فوق صدره، وكأنه مكبل بقيود الحديد، هذا هو الإسلام العظيم يُحوله إلى نفس مسكونة بهمّ المسلمين، تفكر بمصلحتهم العامة ليل نهار، وإلى بطلٍ مغوارٍ اذا حمي الوطيس، كما حصل مع هذا الطبيب المجاهد، جمعنا الله به وقائده في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

أمّا هذا القائد الملهم الذي نوّر الله بصيرته ومتعه ببعد النظر وهداه إلى عملٍ عجزَ عنه قادة العرب والمسلمين حتى يومنا هذا، فقد فهمَ حقاً أنه لن تقوم للمسلمين قائمةٌ إلاّ إذا أكلو مما زرعوا، ولبسوا مما صنعوا.

قال ثم عمل ولو بالبسيط، فوفقه الله واستنبت ما استطاع من التكنولوجيا، تحرياً للحلال وإغناءً للمسلمين عن عدوهم. ويا ليت شعري، فقد اعتمد قادة المسلمين الآن على عدونا في المأكل والمشرب والملبس، وإذا تحرك أحدهم بالاتجاه الإيجابي ونوى نية حسنةً، استورد التكنولوجيا بمعداتها وخبرائها، وما علينا إلا أرض المصنع وحُرّاسه، ولا نعرف شيئاً مما يدور في الداخل، وإذا نهض عالمٌ متحمس له مكانة علمية في الغرب ليُنشىء مصنعاً بنية استنبات

التكنولوجيا، وُضعت أمامه كل المعيقات، ولي شخصياً في ذلك تجربةٌ مريرةٌ، وللمزيد أقرأ كتابي «محطات وعِبر».

وحسبنا الله ونعم الوكيل، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون.

ونسأل الله أن نكون جميعاً رفقاء لهذا الطبيب المجاهد والقائد الملهم في الجنة.

آياتُ الرحمنِ في تنفسِ الإنسانِ

عملية التنفس مستمرة لا تنقطع أبداً ما دام الإنسان على قيد الحياة، شهيق وزفير، استيرادٌ للأكسجين من خزائن الرحمن التي لا تنفد، ونفثٌ لثاني أكسيد الكربون من الجسم، ولهذا خلق الله تبارك وتعالى جهازاً خاصاً لذلك.

والجهاز التنفسي له قسمان، علويٌ وسفلي، فالعلوي يتكون من الأنف والبلعوم والملحقات وهي الأذن الوسطى وقناة استاكيوس والجيوب الأنفية وقناة الدمع الداخلي، أمّا السفلي فيتكون من الحنجرة والقصبة الهوائية والشُعب الرئوية والحويصلات الهوائية.

والأنف هو مقدمة هذا الجهاز والظاهر منه، وهو علاوة على وظيفته أو وظائفه إلاّ أنّه؛ وبغض النظر عن طوله أو عرضه أو شكله ولونه قطعة جمالية لا يكتمل منظر الوجه إلاّ به، ولتتصور أهميته الجمالية أنظر إلى وجه خلا من الأنف؛ ولا شعوريا ستجد نفسك تحمد الله وتشكره الذي قال: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ **(غافر ٦٤)**.

ومن لطف الله بنا أن وضع الرئتين في قفص صدري حماية لهما ولغيرهما، فلولا القفص الصدري الذي يتلقى أي ضربة قوية لحدث ما لا يُحمد عقباه للرئتين من تلف وثقوب، فالقفص الصدري مثله

مثل عازل البولسترين الذي تضعه المصانع حول الأجهزة الكهربائية الحساسة لحمايتها من الخدوش والأضرار أثناء نقلها.

والرئتان رغم صغر حجمهما، محصورتان في مكان ضيق، إلاّ أنهما مكونتان من ستمائة مليون حويصلة هوائية، لو فُتحت هذه الحويصلات (الحجرات) وبُسطت على الأرض لغطت مساحة خمسة وسبعين متراً مربعاً أي ما يُعادل مساحة ملعب للتنس. الملايين من الحويصلات تستقبل الأكسجين القادم من الخارج، والدم المحمل بثاني أكسيد الكربون القادم من أطراف مملكة الجسم، لتتم عملية التبادل بينهم، امتصاص الأكسجين والتخلص من ثاني أكسيد الكربون.

وهذه العملية لو تفكرنا بها وحسبناها حسبة دقيقة لوجدنا فيها عجائب وغرائب، فهي تحدث كل أربعة ثوانٍ مرة أي ستة عشر مـــرة في الدقيقة أي يحدث ثلاثة وعشرون ألف شهيق في اليـوم الواحد، يسحب الأنف فيها (١٢٠) مليـون سـنتمتر مكعب من الهواء يومياً، أي من يعيش سبعين عاماً يسحب خلالها ثلاثة ترليون سـنتمتر مكعب من الهواء.

عندما يلامس الأكسجين كريات الدم الحمراء في الحويصلات تدخل جزيئاته وترتبط بجزيئات الهيموقلوبين الموجودة في الكرية، والملايين من هذه تحملها إلى أنسجة الجسم المختلفة، وللعلم فإن

كرة الدم الحمراء الواحدة بداخلها (٢٨٠) مليون جزيء من الهيموجلوبين الناقل للغازات، ومتوسط عمر كرة الدم الحمـراء (١٢٠) يوماً، تقطع خـلالها مسافـة (١١٨٠) كيلومتر، ويتجدد في الثانية الواحدة ثلاثة ملايين خليـة دم حمراء.

والأكثر عجباً أن درجة الحرارة المثلى لعملية التبادل الغازي (أوكسجين بثاني أكسيد الكربون) هي (٣٧) درجة مئوية، فإذا تصورنا الذين يعيشون في القطب المتجمد؛حيث تنقص درجة حرارة لتصل إلى(- ٢ ,٨٩) درجة مئوية تحت الصفر، لدرجة أن الهواء يتجمد أحياناً على شواربهم، ورغم ذلك يصل الهواء البارد جداً إلى الرئتين عندهم خلال أربع ثوانٍ بدرجة حرارة تقارب (٣٧) درجة مئوية، فما الذي حصل ومن رفع درجة حرارتها؟، الله تبارك وتعالى جعل مجموع مساحة تجويف الأنف مائة وستين سنتمتراً مربعاً، وبطّنها بخلايا قادرة على تسخين البارد أو تبريـد الساخن من الهواء وترطيبه وتنقيته خلال أربع ثوان، وإذ تذكرنا الذين يعيشون في الصحراء الملتهبة حيث تصل درجة الحرارة إلى (+ ٥٨) درجة مئوية ويتنفسون بشكل عادي بفضل الخلايا التي تسحب السخونة منها خلال أربع ثوان.

وكل منهما يتنفس ويعيش حياته بشكل طبيعي بفضل الله أولاً ثم بفضل الأنف وتوابعه، فالأنف مكيِّف صغير يعمل تلقائياً

بمدى (١٤٧مْ)، صغير الحجم ويعمل ليل نهار وبدون كهرباء، ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ **(النمل ٨٨)**.

ومن الحقائق المذهلة أن الإنسان يستنشق سنوياً حوالي نصف كيلو غرام من الأتربة والغبار، ويأخذ مع كل شهيق ما معدله ستون (٦٠) ألف ميكروب، أي خلال (٦٠) عاماً يستنشق ما مجموعه (٣٠) كيلو غراماً من العوالق في الهواء، لكن في الواقع لو بحثنا عنها لا نجدها، إذن أين ذهبت؟!، مرة أخرى نعود الى تجويف الأنف الذي يحوي خلايا للتنقية لها أسواط تدفع للخارج، وفيها شعيرات مبللة بمواد مخاطية، لتلتقط ذرات الغبار وما عليها من جراثيم وتمنعها من التقدم، فهي عبارة عن متاريس تعيق حركتها وتثبتها حتى يأتي وقت الوضوء والاستنشاق والاستنثار الذي يزيحها فيزيائيا ويخلص الإنسان منها، علاوة على كل هذا توجد فرق نظافة تعمل ليلا نهارا دون توقف، وصدق الله القائل: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ **(النحل١٨)**.

والرسول ﷺ يقول في الحديث الصحيح: «إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ مَنَامِهِ فَلْيَسْتَنْثِرْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَبِيتُ عَلَى خَيَاشِيمِهِ» (متفق عليه).

أمّا الممرات التنفسية التابعة فهي مبطنة ببلايين الخلايا التي تفرز مخاطا لزجاً، كل خلية مزودة بمائتي سوط (٢٠٠)، وكل سوط

يضرب ما بين (١٠-٢٠) مرة في الثانية، محاولاً طرد العوالق والجراثيم المتسللة مـن الحواجز إلى الداخـل، ونتيجة ذلك تحدث استثارة عنيفة؛ تنقبض بسببها عضلات البطن والصدر والحجاب الحاجز والحبال الصوتية والحلق وجفون العين، فيخرج الهواء مضغوطا بسرعة تزيد عن (١٧٠) كم/ الساعة، وهو أشبه ما يكون بالإعصار.

فيطرد الآلاف بل الملايين من الجراثيم والذرات العالقة إلى الأعلى، ويمنعها من الوصول الى الرئتين، ولذلك أمرنا رسولنا الكريم أن نحمد الله ونشكره أن خلصنا من هذه الجراثيم، ومنعها من الوصول إلى منطقة حساسة جداً فقال: «إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله وليقـل لـه أخوه أو صاحبه: يرحمـك الله، فإذا قـال له يرحمـك الله فليقـل: يهديكـم الله ويصلح بالكم»(رواه البخاري)، وقال أيضاً: «إنّ الله يحـبّ العـطـاس ويكـره التثاؤب. فإذا عطس أحدكم وحمِد الله تعالى كان حقّا عـلى كـلِّ مسلمٍ سمعـه أن يقول له: يرحمـك الله ...» (رواه البخاري).

وإذا حصل المحظور وتسللت جراثيم الى أقرب منطقة حساسة من تبادل الأكسجين بثاني أكسيد الكربون، أرسل الله أنواعاً من خلايا جهاز المناعة البلعمية لتبتلعها وتخلص الإنسان من خطرها، وأسهل طريق لتسلل الجراثيم هي عند المدخنين، حيث تتلف الكثير من الخلايا التي تحمل الأسواط، فلا أسواط تعترضها، ولذلك المدخن كثير السعال وكثير البلغم.

وفوق كل ما سلف ذكره، فإن في كل جانب من أعلى تجويف الأنف (٤ , ٢) سنتمتر مربع لخلايا الشم، فيها ما مجموعه (١٠٠) مليون خلية حسية مستقبلة يخرج منها حوالى بليون سوط دقيق جداً، تتجدد مستقبلات الشم كل شهرين مرة، وهي حساسة جداً لدرجة التقاط جزيء وحيد من الرائحة من بين (١٠) مليون جزيء من الهواء، علماً أن الإنسان يستطيع بواسطتها التمييز بين عشرات الآلاف من الروائح المختلفة.

هذا موجز بسيط عن جهازٍ واحدٍ من أجهزة الجسم المختلفة، ولو كتبنا عنه بالتفصيل لطال الأمر وكبُر، فكيف إذا كتبنا عن أجهزة الجسم المختلفة، بدقتها وتعاونها وبديع صنعها، وما يتبعها من نفس وروح ومدارك؟!! لاشك أننا أمام خلق عظيم ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ **(الذاريات ٢٠-٢١)**.

فيه من الآيات ما يخلب الألباب ويُحير العقول!، وفوق ذلك يقول تعالى: ﴿ ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴾ **(النازعات ٢٧)**.

ويقول أيضاً: ﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ ﴾ **(الصافات١١)**، وأيضاً: ﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ **(غافر٥٧)**

﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ٧ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ **(التين٧-٨)**.

فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ

ذكر الله تبارك وتعالى النطفة في القرآن الكريم مراراً، أحياناً في معرض الإعجاز في دقة الخلق فقال جلّ وعلا:

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ **(الواقعة ٥٨-٥٩).**

وأحياناً تهويناً من شأنها لأنها أصل الإنسان، حتى لايتكبر ويتجبر أو يكفر بخالق الكون ومدبره، وقال أيضا: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ **(عبس ١٧-١٩)**. وأيضاً: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ **(القيامة ٣٧-٣٨).**

فما هذه النطفة؟، وما وظيفتها ؟، وأين تُصنع؟، ومما تتكون؟، وهل هي نطفة وأحدة أم ملايين النطف؟!، ولماذا تأخذ كل هذه الأهمية؟، أجوبة كل ذلك وأكثر ستجده موجزاً في هذه الخاطرة، وستجد ملامح إعجاز الرحمن في نطف الإنسان.

النُّطفة في اللغة تعني الماء الصافي، وتعني أيضاً المنيّ، وفي علم الأحياء تعني الخليّة الجنسيّة، وهي ليست مقصورةً على الذكر فحسب بل هي على ثلاثة أنواع:

النُّطفة المُذكّرة: وهي الخلاية الجنسيّة أو الحيوان المنويّ الذي يتمّ إفرازه من خلال الخصية عند الرجل، ويحتوي على نصف عدد

الكرموزومات.

النُطفة المؤنّثة: وهي الخليّة الجنسيّة الأنثويّة، وهي البويضة بطبيعة الحال والتي يُفرزها المبيض عند الأنثى، وتحتوي على نصف الكرموزومات.

النّطفة المُختلطة أو النُطفة الأمشاج: وهي خليط من نُطفة الرجل (الحيوان المنويّ) ونُطفة المرأة (البويضة)، حيث تكون هذهِ النُطفة المُختلطة أو الأمشاج بعد أن يقوم الحيوان المنويّ باختلاج حُجُب البويضة وتلقيحها فهيَ تُعرف أيضاً بالبويضة الملقّحة، وتحتوي على كامل الكرموزومات، وقد ذُكرت النّطفة الأمشاج في القرآن الكريم في سورة الإنسان، قال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ **(الإنسان ٢)**.

الحيوانات المنوية حساسة جداً لدرجة الحرارة، فأحسن ما يناسبها أن تكون في حرارة أقل من جسم الإنسان بدرجتين على الأقل، ومن لطف الله بالإنسان أن جعلها تتكون وتعيش خارج الجسم في الصفن، الذي زوده بجلد يتمدد ويتقلص ليحافظ على الحرارة المناسبة.

والقذفة الواحدة عند الرجل الطبيعي يمكن أن تحتوي على (٣٠٠-٥٠٠) مليون حيوان منوي، ويستطيع الرجل السليم إنتاج الآلاف من الحيوانات المنوية يومياً، مقابل بويضة واحدة شهرياً عند الأنثى، علما أن وزن البويضة الواحدة يُعادل وزن (١٧٥٠٠٠)حيوان

منوي، والبويضة أكبر حجماً من الحيوان المنوي بـ (٨٥٠٠٠) مرة.

تقع الخلايا الصانعة للنطف (الحيوانات المنوية) في جدر الأنابيب المنوية الموجودة في الخصية، ويبلغ عدد هذه الأنابيب في الخصية الواحدة لتصنيع النطف ألف أنبوب، طول الأنبوب الواحد منها (٥٠)سنتمتراً (مجموع طول الأنابيب هو (٥٠٠) متر في الخصية الواحدة).

بعض الخلايا الموجودة في الخصية تنقسم انقساماً عادياً: أي خلايا كاملة لتحافظ على بقائها واستمرارها (فيها (٤٦) كرموزوم)،وأخرى تنقسم إنقساماً مُنَصّفاً لتنتج خلايا وليدة تحمل نصف المادة الوراثية (٢٣ كرموزوم)، وبلغة تخاطب خاصة لإتمام المهمة تفرز هرمونات خاصة لإنتاج النطف وآخرى لتنميتها وتطويرها، وبعد أسبوعين من الانقسامات وتجميع الخلايا الوليدة تقوم الخلايا المساعدة باحتضانها بقوة بواسطة أذرعها البلازمية وتغذيتها ومراقبتها طيلة فترة نموها وتطورها. وخلال فترة الحضانة تتم عملية تغليف الرأس بالدرع الواقي، ودمج الذنب والمحرك والرأس معاً، بعد اكتمال تشكل النطف تتحرك إلى الجزء العلوي من الأنابيب الناقلة، ومن ثم إلى مراكز التدريب في البربخ.

والبربخ(ميدان التدريب) هو أنبوب على شكل حرف(C).، قطره جزء من (٣٠٠) جزء من البوصة، وطوله (٦٠٠)سنتمتر،

ويشغل حيزاً لا يتجاوز (٤) سنتمترات، ومدة الدورة التدريبية ثلاثة أسابيع، يتخرج الحيوان المنوي سبّاحاً مبتدئاً وبسرعة تتجاوز أربعة أضعاف طوله في الثانية، وبعد التدريب تتجه النطف إلى قناة الإفراغ بانتظار الأوامر للانطلاق، علماً أن عملية تخلُّق النطفة (١٢٠) يوماً.

الخلايا التي تنتج الحيوانات المنوية حساسة جداً، وتتلف لأسباب عدة من أهمها، الالتهابات الفيروسية والأمراض المنقولة بالزنا والشذوذ خاصة مرض السيلان، كما أن هناك عوامل كثيرة تقتل أو تضعف الحيوانات المنوية من أهمها: تعاطي الخمرة والتدخين والتهابات البروستات.

وماء الرجل خليط معقد التركيب فيه أربعة عشر(١٤) مادة منها لتنظيف المجرى قبل خروج موكب الحيوان المنوي، ومنها للحراسة والحماية من الجراثيم، ومنها غذاء...الخ، وكلها في خدمة الحيوانات المنوية التي لا تُشكل أكثر من (٥٪)فقط من كل هذا الخليط.

عندما يُقذف السائل المنوي في مكانه الطبيعي فإن قاعديته تعادل – مؤقتاً – حموضة المهبل القاتلة للنطف، والطبيعة المخاطية للسائل تمنع تسرب النطف، وهذا الوسط مهم لتزويد النطف ببعض السكر لمساعدته على الحركة، ولتأهيل وتهيئة النطف للانطلاق وإزالة البروتينات العالقة على الرأس (وكأنه يستحم)، ولترتيب الدهون والبروتينات الضرورية وزيادة وحدات الطاقة للإنطلاق الى

هدفها الذي ينتظرها في أعلى قناة فالوب.

تموت أعداد كبيرة من الملايين المقذوفة، وتسبح النطف الحية من خلال السائل المخاطي في عنق الرحم، علماً أن هذا السائل المخاطي يرق ويشف في فترة الإباضة ليوفر مزيداً من الحرية وسهولة الحركة للنطف، عندما تدخل النطف إلى الرحم تتشكل مسارب أنبوبية رفيعة آمنة تقود النطف باتجاه البويضة، هنا تتفجر طاقة النطف بعد دخولها للممرات، فتقوى حركتها وتصل سرعتها في الثانية الواحدة إلى (٣٣٦) ضعف طولها، وعادة لايتجاوز هذه المرحلة إلاّ عدة آلآف من النطف القوية.

تولد الأنثى وكل مبيض يحتوى على نحو (٣٠٠,٠٠٠) بصيلة، لا ينضج منها سوى ما نحو (٢٠٠- ٣٠٠) على مدى فترة خصوبة المرأة، في كل شهر يطلق أحد المبايض بويضة واحدة أو أكثر في اليوم الرابع عشر من الدورة الشهرية، في هذه الأثناء تصل البويضة (العروس) إلى اللوج في قناة فالوب وتنتظر رفيق العمرللإخصاب ، تندفع الحيوانات المنوية بقوة في قناة فالوب نحو البويضة في تنافس شديد من أجل تلقيحها. علما ًأن شحنات غلاف البويضة مخالفة لشحنات الحيوانات المنوية فتتجاذب مما يزيد من سرعتها، وتتجه النطف إلى مستقبلات خاصة (على شكل نتوءات) على سطح البويضة.

يحتوي جدار البويضة الخارجي على عدة طبقـــات يمكـن أن

يجتازها عدد من الحيوانات المنوية، أما غشاء البلازما فمتين ويغلق في وجه الآخرين بعد دخول أول نطفة منه، وكأنه يُعلن عن انتهاء السباق، يلتحم رأس الحيوان المنوي الفائز مع غشاء البلازما للبويضة ويفتح بينهما ممر يُدخل من خلاله محتوياته (المادة الوراثية). تتغير شحنة غشاء البويضة فوراً لتصبح مشابهة لشحنة النطف؛ فتتشكل قوة تنافرية تطرد النطف الأخرى بعيداً عنها.

بعد (٧ - ١٠) ساعات من التلقيح تلتحم نواتي الحيوان المنوي والبويضة ليشكلا أول خلية في بناء جسم الإنسان (النطفة الأمشاج)، بعد التلقيح بحوالى (١٥) ساعة تبدأ الشعيرات المبطنة لقناة فالوب بدفع اللقيحة باتجاه الرحم حتى تصله لتجد مكانها للالتصاق والانغراس لتصبح علقة بإذن ربها، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ **(المؤمنون ١٤)**.

هذه الرحلة العلمية الموجزة بمرافقة النطف البسيطة لتبدأ منها الحياة، تدل على حكمة الخالق وعظمته، ولكنّ أكثر الناس لايعلمون، فيتمردون ويتكبرون ويصيبهم الغرور، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ **(يس ٧٧)**.

تم بحمد الله